# دور المستشرقة دراور في ديانة الصابئة المندائية من خلال كتابها ومواقع الصابئة المندائيين

د. حياة بنت سعيد باأخضر

أستاذ مشارك بمعهد اللغة العربية للناطقين بغيرها

جامعة أم القرى، تخصص : عقيدة


2003
١٤٢٤
جامعة الأندلس
للعلوم والتقنية
Alandalus University For Science & Technology

**(AUST)**

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

# دور المستشرقة دراور في ديانة الصابئة المندائية من خلال كتابها ومواقع الصابئة المندائيين

**المقدمة :**

الحمدللّه الذي جعل الوحي حكما عدلا نحاكم به كل ضال ومفسد ومحارب لنا والحمدللّه الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويردون على أهل البغي والمبطلين .والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين الذي علمنا كيف نرد على المبطلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

يظل عمل المستشرقين ظاهرة أهدافه .ظاهرجلدهم عليها للوصول إلى تحقيقها.ومن هؤلاء المستشرقة اليهودية الديانة البريطانية الجنسية "الليدي دراور " التي رأيتها حاضرة أمامي أثناء بحثي في ديانة الصابئة المندائيين سواء في كتابتها الخاصة عنهم أو ترجمتها لكتبهم المقدسة أو حياتها بينهم لأربعين سنة تقريبا.

**أهمية البحث:**

تعتبر الكتابة عن المستشرقة دراور مهمة جدا لأسباب عدة منها:

١ - عدم وجود كتاب خاص عن حياتها ودورها في ديانة الصابئة المندائية حسب ماتوصلت إليه [١].

٢ - دورها البارز في حياة الصابئة المندائيين

٣ - كتابها عنهم والذي يعد المرجع الرئيس لكل من كتب عن الصابئة المندائيين.

**منهجي في البحث:**

كان منهجي تتبعي استقرائي وتحليلي لما كتبته ولما كتب عنها سواء في الكتب أو المواقع التي توفرت لي.

**مصاعب البحث :** عدم توفر المصادر والمراجع سوى كتابين لها هما: الصابئة المندائيون وأساطير وحكايات شعبية والثاني هو عبارة عن مجموعة أساطير سردها لها أحد رجال دين الصابئة المندايين وفيه من الكذب والخيال الكثير جدا.

فلجأت لمواقع الصابئة المندائيين ولمن كتب عنهم أجمع المعلومات؛ وذلك لعدم يسر الوصول إليها عبر مصادر متوفرة وكذلك لكثرة ماكتبه عنها الصابئة المندائيون المعاصرون في مواقعهم المعاصرة والتي تمثل دينهم وثقافتهم ؛لذا حرصت على ربط

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

عنوان بحثي بمواقعهم حتى تكون صورة بحثي ظاهرة للعيان بأني جمعت فيه بين المراجع الورقية والإلكترونية، وهذا بات سمة معاصرة حتى بين الحكومات التي سميت حكومات إلكترونية، فلا أجد عملي بدعًا ولا مثلبة ولا قصورا .وهذا المأمول وصوله لكل من يقرأ بحثي ويجد فيه شيئا من ضالته المنشودة.

ولا تزال المستشرقة دراور تحضر في الوقت المعاصر في بلادها بريطانيا حيث قدمت ابنتها مارغريت المتخصصة في علم الآثار خاصة الحضارة المصرية لقاء نظمه ديوان الكوفة بوسط لندن، في أمسية ثقافية عن حياة وتراث الليدي دراور[٢].

**خطة البحث:**

لقد قسمت البحث إلى مقدمة وستة مباحث وخاتمة

**المقدمة**

**المبحث الأول:** مفهوم الصابئة

وتحته مطلبان:

المفهوم اللغوي

المفهوم الاصطلاحي

**المبحث الثاني** : مفهوم الاستشراق

**المبحث الثالث** : السيرة الذاتية للمستشرقة دراور

**المبحث الرابع** : أهداف المستشرقة دراور من دراستها للصابئة المندائيين

**المبحث الخامس:** سمات كتابتها عن الصابئة المندائيين.

**المبحث السادس** : ثناء الصابئة عليها

**التعقيب**

**الخاتمة**

**ثبت المراجع**

**الفهرس**

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

## مفهوم الصابئة

### المطلب الأول: المفهوم اللغوي

إن كلمة الصابئة مأخوذة من الفعل الثلاثي (صَبَأَ يَصْبَأ ُ صَبْأَ وصُبُوءا وصَبُؤ يَصْبُؤصَبْأ وصُبُوءا.كلاهما : خرج من دين إلى آخر كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها ويقال أصبأت القوم إذا هجمت عليهم وأنت لا تشعر بمكانهم وصبأت على القوم وصبعت أي تدل عليهم غيرهم، وتنطق مهموزة وغير مهموزة)[٣] .

(فالصائبة في اللغة إذن : هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم، المخالفون لهم في ديانتهم، شأنهم في ذلك شأن من نسميهم في أيامنا بالملحدين أو الهدامين، أو أي مصطلح آخر يرمي به من يخرج على ديانة المجتمع و قيمه و تقاليده .. ازدراء لهم و تنفيراً للناس منهم)[٤] ( فالصبوة في مقابلة الحنيفية فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة)[٥]؛ لذا نجد (المسلمين لم يرتاحوا لهذه التسمية، بل كانوا يكذبون كل من يطلق عليهم هذه التسمية من المشركين، فلما نادى – جميل بن معمر الجمحي – في قريش قائلاً : ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ ...وذلك حين دخل في الإسلام – فنادى عمر - رضي الله عنه وأرضاه - من خلفه قائلاً : لقد كذب .. إني أسلمت .. فتكذيب عمر - رضي الله عنه - وغيره للوثنيين من أهل مكة، يشعر بأن أهل مكة إنما أطلقوا على المسلمين هذه التسمية إهانة لهم، وازدراء بهم لأنها كانت سبة عندهم، وإلا لما انزعج المسلمون منها)[٦] .

ولكن هذا المعنى اللغوي يرفضه الصابئة الحاليون ويرون :أن معنى اسمهم لغويا مأخوذ من الفعل الثلاثي "صبَّ" ومنه صب الماء ونحوه: أراقه وسكبه[٧] و( أصل الكلمة مندائياً آراميا حيث جاءت الكلمة من الجذر( صبا) أي ارتمس أو غطس وكذلك جاء هذا الجذر في اللغة العربية مماثلاً كما في اللغة المندائية وجاء تفسيره في المعاجم العربية هو صب الماء من الرأس إلى أخمص القدم أو الارتماس في الماء وجاءت تسمية الصبة أو الصابئة من خلال المحيط لهم وهم يغطسون ويرتمسون بالماء)[٨] . وعملية التعميد تعني "مصبتا " وهو يتفق مع طقسهم الرئيس في شريعتهم وهو الاغتسال في المياه الجارية .

ولكنا نجد باحثة مندائية تحاول الجمع بين أصل الكلمة عربيا وصابئيا من خلال الفعلين صبأ وصبغ لتثبت – في زعمها – صدق دينها فتقول: ( نحن إن عدنا إلى المصادر الصابئية لوجدنا فيها كلمة " صبا " غير المهموزة ومشتقاتها وهي من المفردات

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

المندائية الآرامية وتعني التعميد أو التطهير بالماء كشعيرة دينية أساسية من شعائر الصابئة المندائيين، وهم يطلقون على هذه الشعيرة " صباغة " فيكون تفسيرها إلى اللغة العربية :صبا: صبغ والكلمة بهذا المعنى واردة في اللغة الآكدية "صيبو" " صيبو توم "، ثم ذكرت عدة مشتقات للكلمة في اللغة الآرامية تعود إلى معنى التعميد بالغطس في الماء:صبا، صبيت،مصبوتا، مصطبا، وحاولت ربط ماسبق بالفعل الثلاثي العربي " صبغ "وقالت : إن هذه الكلمة تحمل المعنى المادي وهو الاغتماس أو الغمس في الماء، كما أنها تحمل في الوقت ذاته معنى دينيا هو التحول أو الدخول في دين جديد وذكرت معنى الفعل في اللغة العربية واختارت المعنى الآتي :"الصبغ الغمس والتغيير وسمت النصارى غمسهم أولادهم في الماء صبغا لغمسهم إياهم فيه، تطهيرا له وصبغة الله : دينه والصبغة الشريعة والخلقة وقيل كل ماتقرب به "وتخلص إلى وجود تناظر واضح بين الكلمة الآرامية "صبا" والكلمتين العربيتين : " صبأ "و "صبغ " إذ إن الكلمات الثلاث تحوي مدلولا دينيا واحدا هو التغيير أو التحول من دين إلى دين آخر والغمس للتطهير فتكون الخلاصة:أن الصابئي هو الشخص الذي صبأ – عربية – أي دخل في دين الصابئة بعد أن صبا – آرامية – أي اصطبغ أو تعمد بالماء )[٩] .

وقيل أيضا أن أصل الكلمة (عبرية ثم نقلت إلى الجزيرة العربية وصارت بمعنى خرج ومال وإلا فهي في معناها بالعبري تطلق على ما يتصل بالحروب والجهاد، وقيل من الفعل العبري صبغ أي غطس وقيل إن كلمة " صبأوث" التي تعني جند السماء )[١٠] وهذا القول يحتاج إلى تحرير يربط صحة هذه الأقوال بصحة مفهوم الكلمة في اللغة العبرية .

**المطلب الثاني: المفهوم الاصطلاحي**

لقد وضع الصابئة لأنفسهم تعريفا خاصا بهم مشتق من عقيدتهم في كتبهم المقدسة عندهم، وقد أخذته من كتاباتهم فيقول أحدهم: ( الصابئة هي ( مندائي) وهذه تعني شيئين :

فسرها بعض علماء اللغات بأنها تعني " العارف" ومن كلمة العارف أو المعرفة اشتقت كلمة المعرفيين أي ( Gnostic ). وكلمة المعرفة تعني معرفة الله من جراء تأمل أو نسك أو تصوف وتفكير عميق في أن هذا الكون يحتاج إلى خالق مدبر، أو إلى موجد مكوّن. وهذا التفكير العميق لا يحتاج إلى أنبياء ورسل ليوصلوه إلى الناس ويفرضوا عليهم طاعته وعبادته، وعلى هذا فقد فرض من جراء هذا الاعتقاد أن

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

الصابئة لا يؤمنون برسالة الأنبياء، وهذا عكس ما هو موجود في كتبهم أي إيمانهم بآدم وشيت وسام ويحيى ومنهم اشتقوا منابع ديانتهم.

أما القول الثاني والذي أفسره آنا كما يفسره بعض العلماء غيري - هذه العبارة نقلا عن الكاتب الصابئي غضبان الرومي -أن كلمة مندائي مشتقة من مندا وتعني الموحد ومنها أخذت مندي وتعني محل العبادة أو التوحيد. وكلمة منداد هي وتعني توحيد الله وعبادته.

إذن فكلمة منداي تعني وتشمل الموحدين أكثر مما يقصدها بعض العلماء من المستشرقين. وعلى كلا الشكلين فالدين الصابئي سواء كان من المعرفة أو من المندائية فهو يعني توحيد خالق لهذا الكون. خالق علوي يعجز الإنسان أن يصفه أو أن يعرف تكوينه أو أن يعرف كنهه، لأن أي وصف تطلقه عليه تجده أعلى منه وأكثر دقة وشمولا من ذلك الوصف)، ومهم من يرى أنه اشتقت كلمة الصابئة من ( صبا Sba ) الآرامية وتعني من صبغ أو تعمد، وتعني بالعربية الصابئي كل من خرج من دين إلى دين آخر. وكلا الكلمتين يعنيان شيئا واحدا وهو التغيير العبادي. فالتعميد في العقيدة الصابئية يجعل الشخص يتبع بعد التعميد العقيدة الصابئية وقد جاء في كتاب" الكنزا ربه" الكنز الرباني أو صحف آدم وهو الكتاب الذي شرح ووضح عبادة الصابئة وفلسفة عقيدتهم قوله "مَصْفِتّخ مِتَفرقَخُ من يَهُودُوثه إلى مَنديُوثة"، أي أن عمادك يخرجك من اليهودية إلى المندائية. وعلى هذا فالتعميد يعني إعطاء الفرد الصابئي صفته الصابئية أو اسم الصابئية) [١١].

ووجدت منهم من يقول إن تسميتهم بالصابئة تعود إلى حفيد إدريس عليه السلام " صابئ بن قشلوح بن إدريس "وهذا الكلام غير دقيق ؛لأنه لا تولد الأسماء قبل المسميات[١٢] . وعند القراءة في كتبهم المقدسة نجدهم يعنون بالتوحيد تعطيل إلهم عن كل الصفات وليس المقصود به التوحيد الحقيقي الذي نعرفه كمسلمين . ولكن المفهوم الحقيقي للصابئة [١٣] هو( التي تعتبر يحيى عليه السلام نبيا لها، يقدس أصحابها الكواكب والنجوم ويعظمونها، ويعتبر الاتجاه نحو نجم القطب الشمالي والتعميد في المياه الجارية من أهم معالمهم )[١٤] .(واختلف فيهم على عدة أقوال فمنهم من يرى أنهم من النصارى ومنهم من يقول إنهم من اليهود ومنهم من يقول إنهم من المجوس ومنهم من يقول إنهم من لادين لهم : من كانوا عى الفطرة ولا يتدينون بدين ) [١٥].

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

ولكن صابئة العراق المعاصرين يفضلون تسمية أنفسهم بالمندائين لأن (اسم "الصابئين " كاسم لهذه الطائفة غير معروف عندنا لا دينياً ولا تريخيا؛ لأننا نعرف أنفسنا ( مندايي ) فلا بد إذاً من ان تكون تسميتنا بالصابئين قد جاءت من الأقوام التي حولنا، فإذا علمنا أن الشعار الديني الرئيسي لدينا هو الاغتماس في الماء الجاري وأن طهارتنا اليومية تمارس كذلك عن طريق الاغتسال في الماء وأن هذه الممارسة تسمى عندنا ( مصبته ) أي التعميد ترجح لدينا أن التسمية ( صابئي ) مأخوذة من فعل ( صبا ) الآرامي، ومعناه يغتمس ويتعمد ونحن نقول في صيغة الأذان عندنا (انش صابى بمصبته شلمى ) أي كل من يتعمد بالمعمودية يسلم. كما نقول في التعميد ( صبينا ابمصبته اد بهرام ربه ) أي تعمدت بعماد إبراهيم الكبير، ولا بد هنا الإشارة إلى أن اللغة المندائية تخلو من التنقيط ومن بعض الحروف الموجودة في اللغة العربية، ومنها حروف ع غ ض ظ ويستعاض عنها في بعض الأحيان بحرف الهاء لأنه أسهل في اللفظ، علماً أن حرف العين موجود إلا أنه مهمل عمليًا، ومن هنا بدأت أول مشكلات النطق فتحول الفعل [اصطبغ ] إلى [اصطبأ ] وبمرور الوقت تحول اللفظ الى [ صبأ]، ومنه بدأت أول المشاكل مع إخواننا المسلمين حيث نتذكر جميعاً أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان يلقب بالصابئ؛ لأنه خرج عن دين آبائه لكنها تعني في اللغة المندائية تعمد، اغتمس في الماء. ولدينا الكثير من العبارات التي تذكر كلمة ( المصبته ) كثيراً في طقوسنا. فمن المعقول أن يكون الأقوام المجاورون لنا، وكثير منهم آراميون ويعرفون اللغة الآرامية، قد أطلقوا علينا اسم ( الصابئين ) أي المغتسلة بالآرامية( وقد أيد هذا الرأي كثير من الباحثين منهم نولدكه والأب الكرملي والليدي دراوروالبرفسور اوليري وكثيرون غيرهم)[١٦]، وترى باحثة مندائية أن ( الصابئة والمندائيون تسميتان لمسمى واحد )[١٧] .

ولكن مقدم كتاب " الصابئة المندائيون دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيون "يذكر ( أن المندائي هو اسم مكان أما الصابئي فهم الاسم الديني ) وبما أنه من إيران ويكتب عن هذه الطائفة المستقرة في إيران فهو يعيد اسم المندائي إلى دولة " ماد "أو " مادي " التي هي الآن إيران واتخذوا بالتالي – على حسب رأيه – اسما جديدا لهم من هذه الحضارة من المادائي أو الماندائي وبقوا محافظين على هذا الاسم الجديد على مدى ١٨٠٠ عام)[١٨] ..

وتتعدد أسماؤهم الدالة على معنى واحد:(الصابئة.. المندائيون.. المغتسلة، أسماء مختلفة لمعنى واحد، يشير إلى أكثر الجماعات الاثنية - في التاريخ - ارتباطا

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

وتقديسا للماء)[١٩]، وفي سؤال في مجلة مندائية: لماذا تعددت تسميات المندائيين ؟ فكان جواب أحد كهنتهم :( اختلفت تسميات الصابئة بسبب بعد تاريخهم وتقلبات العصور فهم يرجعون بجذور عقيدتهم إلى النبي آدم عليه السلام ولذلك فهم من أقدم الأقوام المؤمنة ولذلك فإن تعاقب الأطوار والحقب التاريخية وتغيير مكان وجودهم وسكنهم باستمرار هو السبب الرئيسي لاختلاف التسميات التي أطلقت عليهم )[٢٠] .

وفي المقابل نقرأ تعريف الصابئة عند علماء السلمين لورود اسمهم في ثلاثة مواضع في القرآن[٢١]. ونظرًا لغموضهم وباطنيتهم فقد اختلف حول تعريفهم علماء المسلمين: ونبدا بأول تفسير وصل إلينا فنقرأ تعريف الإمام الطبري – رحمه الله -: ( الصابئون جمع صابئ وهو المستحدث سوى دينه دينا وأختلف أهل التأويل في من يلزمه هذ الاسم من أهل الملل فقال بعضهم :يلزم ذلك كل خارج من دين إلى غير دين وقالوا: الذين عنى الله بهذا الاسم قوم لادين لهم، وقال مجاهد :الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى ولا دين لهم وعنه : الصابئون بين المجوس واليهود لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .وقال ابن زيد: الصابئون دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لاإله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لاإله إلا الله، ولم يؤمنوا برسول الله، وقال آخرون هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون القبلة وزاد قتادة ويقرءون الزبور وقيل بل هم طائفة من أهل الكتاب)[٢٢] الطبري، وذكر الحافظ ابن كثير –رحمه الله - هذه الأقوال وزاد عليها ( وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي ثم اختار هذا القول: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود والنصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ أي أنه خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك )[٢٣] ، ومنهم من يقول: ( إنهم من النصارى وصبوا إلى المجوسية، ومنهم من قال إن كتابهم الزبور الذي أنزل على داود عليه السلام وهو مواعظ بلا أحكام وقيل إنه أحكام نزل بها جبريل عليه السلام على داود كالأحكام التي نزل بها على النبي ﷺ من غير القرآن)[٢٤] ونقرأ مجموعة من الأقوال تنقل لنا الاختلاف حولهم منها: إنهم على دين نوح -عليه السلام -وهذا مستبعد حين القراءة في تاريخهم الذي يذكرونه عن أنفسهم، ثم لا دليل موثوق عليه: وقد ذكر ذلك الماوردي – رحمه الله ت ٣٦٤ - (إن الصابئ الخارج من شيء إلى شيء؛ فسمي الصابئون بهذا الاسم لخروجهم من اليهودية إلى النصرانية وقيل إنهم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام)[٢٥]، ويرى الزمخشري – رحمه الله – أنهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة[٢٦]، والآمدي – رحمه الله

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

ت ٦٣١ - يرى أنه ( الأشبه تسمية هذه الطائفة صابئة لميلهم وانحرافهم عن سنن الحق في نبوة الأنبياء؛ لاتخاذهم آلهة غير الله تعالى أخذا من قول العرب صبأ الرجل إذا مال وانحرف) [٢٧] ، والرازي يميل إلى أنهم بعث فيهم إبراهيم عليه السلام عباد النجوم وسماهم الصبائية فقال: (قوم يقولون إن مدبر هذا العالم وخالقه هذه الكواكب السبعة والنجوم فهم عبدة الكواكب، ولما بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام كان الناس على دين الصابئة ) [٢٨] ، وبقول الرازي قال ابن حزم، (وقد يضاف إلى جملة من قال إن مدبر العالم أكثر من واحد الصابئون وهم يقولون بقدم الأصلين على نحو قول المجوس إلا أنهم يقولون بتعظيم الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر، وكان الذي ينتحله الصابئون لأقدم الأديان على وجه الدهر والغالب على أهل الدنيا إلى أن أحدثوا فيه الحوادث وبدلوا شرائعه بما ذكرنافبعث الله عزوجل إليهم إبراهيم خليله عليه السلام بدين الإسلام الذي نحن عليه الآن، وتصحيح ما أفسدوه بالحنيفية السمحة التي أتى الله بها محمد r من عند الله تعالى) [٢٩] ، وكذا يرى كل من ابن تيمية وابن قيم الجوزية رحمهما الله - في أنهم من بعث إليهم إبراهيم -عليه السلام - فنقرأ للإمام ابن قيم الجوزية وصفا للصابئة بأنهم: ( أمة كبيرة من الأمم الكبار ) وبين أن الاختلاف حولهم حقيقة وبين سبب ذلك (وقد اختلف الناس فيهم اختلافا كثيرا بحسب ما وصل إليهم من معرفة دينهم وهم منقسمون إلى مؤمن وكافر، وهؤلاء هم قوم إبراهيم عليه السلام وأهل دعوته، وكانوا قسمين حنفاء ومشركون، وأصل دين هؤلاء – كما يزعمون - أنهم يأخذون بمحاسن ديانات العالم ومذاهبهم، ويخرجون من قبيح ماهم عليه قولا وعملا؛ ولهذا سموا صابئة: أي خارجين، فقد خرجوا عن تقيدهم بجملة كل دين وتفصيله إلا ما رأوا فيه من الحق، والمقصود أن هذه الأمة قد شاركت جميع الأمم وفارقتهم فالحنفاء منهم شاركوا أهل الإسلام في الحنيفية والمشركون منهم شاركوا عباد الأصنام ورأوا أنهم على صواب وأكثر هذه الأمة فلاسفة والفلاسفة يأخذون من كل دين – بزعمهم – محاسن ما دلت عليه العقول، وعقلاؤهم يوجبون اتباع الأنبياء وشرائعهم .) ثم ذكر خلاصة قوله بأن قال إنهم فرق: فصابئة حنفاء وصابئة مشركون وصابئة فلاسفة وصابئة يأخذون بمحاسن ماعليه أهل الملل والنحل من غير تقيد بملة أو نحلة) [٣٠] ، بينما فصل شيخه ابن تيمية – رحمه الله – ما سبق فهو :بداية يرى أن الصابئة في أصلهم مؤمنون موحدون فيقول: (ولهذا قيل إن أرسطو بدل طريقة الصابئة الذين كانوا قبله والذين كانوا مؤمنين

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

باللّه واليوم الآخر الذين أثنى عليهم القرآن) [٣١] وذكر عنهم عدة تعريفات فقال رحمه اللّه :إن الصابئة ينقسمون إلى قسمين :

**القسم الأول (الصابئة الحنفاء) :**

هم من كان متبعا لشريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل من اليهود والنصارى، وهؤلاء ممن حمدهم اللّه وأثنى عليهم، وروي أيضا بإسناد ثابت [٣٢] أنهم : الذي يعرف اللّه وحده فهم قد يقولون لا إله إلا اللّه فقط وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا ، وقيل هم قوم من المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين وليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي وهم ليسوا كفارا ، فإن اللّه قد أثنى على بعضهم فهم مستمسكون بالإسلام المشترك وهو عبادة اللّه وحده وإيجاب الصدق والعدل وتحريم الفواحش والظلم ونحو ذلك مما اتفقت الرسل على إيجابه وتحريمه .

**القسم الثاني (الصابئة المشركون):**

وهم الذين يعبدون الملائكة والذين يسمونهم الروحانيات العلوية – كما يزعمون – ويزعمون أنهم يقرؤون الزبور)[٣٣] . ولكن المعنى الغريب للصابئة والذي يحتاج للرد ماذكره صاحب " في ظلال القرآن " وهو: (الصابئون الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة الذين ساورهم الشك فيما كان قومهم عليه من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها فاهتدوا إلى التوحيد وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم عليه السلام واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم فقال عنهم المشركون إنهم صبأوا أي مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك، ومن ثم سموا الصابئة وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير)[٣٤] وقوله إنما هو نقل للمعنى اللغوي ويصادم مانقله عنهم السابقون وهم أعلم بهم منه .

ويرى بعض الصابئة المعاصرين أنه ( قد جاء منهم إبراهيم الخليل عليه السلام والملقب بأبي الانبياء. ولدى الصابئة كثير من الأساطير عن إبراهيم الخليل وانتسابه إليهم لولا حدوث بعض العوارض الدينية له في حياته وهجرته من بابل الى حران. ولم يكن إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا؛ لأنه ولد وبشر بالتوحيد قبل موسى بحوالي ألف سنة) [٣٥].

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

ولكن صلة الصابئة اليوم وهم من يسمون أنفسهم الصابئة المندائيون بإبراهيم - عليه السلام -[٣٦] محل نظر عند باحث عراقي معاصر فقد توصل إلى أن اسم" بهرام الكبير " الذي يرددونه هو اسم لأحد الملائك المقربين وليس اسما لإبراهيم عليه السلام، كما ثبت تنقصهم لإبراهيم عليه السلام وأنه نجس لقيامه بختان نفسه وهو بهذا قد خرج من ملتهم – كما يزعمون – وأبعد من أعمال الكهانة [٣٧] .

**المبحث الثاني: مفهوم الاستشراق**

في **اللغة** : الاستشراق مأخوذ من كلمة الشرق، والشرق في اللغة هو: شرقت الشمس شروقا وشرقا :طلعت واسم الموضع المشرق[٣٨] وأضيفت إلى الكلمة الحروف الثلاثة" ا،س،ت" والتي تعني في قواعد اللغة العربية: طلب الشيء .فالاستشراق إذن هو طلب الشرق[٣٩] .

وهناك من بحث في معاجم لغات عدة ووجد أن الشرق يعني النور وضده الظلام ويعني توجيه الحواس نحو اتجاه أو علاقة ما في المجال الفكري والروحي ، أوبمعنى يتعلم أو يبحث عن شيء ما ويأتي بمعنى التوجيه والإرشاد[٤٠].

وفي **الإصطلاح**: على الرغم من أن مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان على تفاوت بسيط بالنسبة للمعاجم الأوروبية المختلفة، لكن الأمر المتيقن أن البحث في لغات الشرق وأديانه وبخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثير، ولعل كلمة مستشرق قد ظهرت قبل مصطلح استشراق، وأرجع الغربيون ظهوره المبكر للحاجة الماسة لوجود متخصصين للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية [٤١].

ولكن يكاد يتفق الباحثون في علم الاستشراق على تعريفه وبدهي أن الباحثين من المسلمين عندما يعرفونه فإنما يكون بما يفصح عن خصوصيتهم ومن هذه التعريفات للاستشراق:

١ -تذكر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب أن الاستشراق: [ORIENTALISMD تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق ويطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي تشمل حضارته وأديانه ولغاته وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصفة خاصة معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما ][42] .

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

٢ -دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب : عقيدة وشريعة وحضارة وتاريخا ونظما وثروات وإمكانيات بغرض السيطرة عليه غالبا[٤٣]

٣ -تعريف مشرف موقع المدينة المنورة للدراسات الاستشراقية: هو كل ما يصدر عن الغربيين وأمريكيين من إنتاج فكري وإعلامي وتقارير سياسية واستخباراتية حول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة أو الفكر أو الفن، ويمكننا أن نلحق بالاستشراق ما يكتبه النصارى العرب من أقباط ومارونيين وغيرهم ممن ينظر إلى الإسلام من خلال المنظار الغربي، ويلحق به أيضاً ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين وتبنوا كثيراً من أفكار المستشرقين[٤٤] .

ومن خلال هذا المفهوم نجد الاستشراق يتميز بأبعاد ثلاثة:

**البعد الأكاديمي:** من حيث ان المستشرقين يقومون في دراساتهم على مناهج خاصة تتبع لجامعاتهم ومعاهدهم .

**البعد العرقي:** إذ يعتبر الاستشراق أسلوبا للتفكير يعتمد على التمييز العقلي والثقافي والتاريخي والعرقي بين الشرق والغرب .

**البعد الاستعماري:** إذ يمثل الطريق الحقيقي لمعرفة الشرق بغية احتلال هوإعادة توجيهه والتحكم فيه[٤٥] .

وهذا المصطلح المتداول أصرالمستشرقين على ضرورة التخلي عنه ؛ لأن كلمة مستشرق ـ على حد تعبيرهم ـ أصبحت منذ الآن ـ ١٩٧٣ - فصاعدا ملوثة وليس هناك أمل في الخلاص تقول المستشرقة البر فسورة نادية أنجيليسكو[٤٦] : [ بدأنا نخشى من مصطلح الاستشراق بالمعنى الذي أصبح منتشرا في السنين الأخيرة ونبحث عن بديل يدفعنا إلى ذلك التخصص الدقيق الذي أصبح ضروريا في مجال العلوم الإنسانية ] وترى أن مهنة الاستشراق هي مهنة المخاطرة ؛ لأن هذا المترجم يجب أن يقاوم صدمة الثقافات التي تحدث في شخصيته . وتؤكد نظريتها السابقة لما تعتقد أن تسمية المشتغلين بالعلوم الإسلامية من الغربيين بالمستشرقين تسمية مشئومة لذا فمن خلال تجربتها ترى أن المصطلح البديل والمناسب هو [المستعرب] [٤٧].

وأنا لاأوافقها القول؛ لأن المستشرق المهتم بالحضارة الإسلامية والتي كُتبت وحُفظت باللغة العربية لاتعني اقتصار أبحاثه على العرب فقط سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين بل كل دراساتهم في الوقت السابق والحاضر، منصرفة فقط على

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

الإسلام وأتباعه، وباعترافها هي في كتابتها بأن انحسار الخطر العثماني ـ كما تزعم ـ مهد لانفتاح المستشرق، ومما يعضد اعتراضي عليها ما ذكره صاحب كتاب { الاستشرا ق بين الموضوعية والانفعال } ولكن بما يفصح عن حقيقة الاستشراق فقد قال [ إ ن لفظة مستشرق تثير في نفوسنا أحاسيس شتى بيد أنها لا تخلو من الشك والارتياب، وهذا الشك الارتياب ليسا من صنعنا ولا من طبيعتنا بل إنهما من صنع بعض المستشرقين المسرفين، الذين لم يتجردوا عن يهوديتهم أو نصرانيتهم أو عرقيتهم حين كتبوا عن العرب أو عن الإسلام. وضرر هؤلاء لم يهدم للإسلام تراثا ولا للمسلم دينا قدر ما كان في كتاباتهم من ضرر على أبناء جلدتهم من تشويه للحق، ومجانبة للبحث العلمي الصرف الذي يفرض على الدارس أمانة الضمير وتثبت الخبير، فرددوا ما قاله أسلافهم المدفوعون بعصبيتهم الحمقاء دون بحث أو تمحيص، فتخلوا عن صفة العالم الثبت، وهم بذلك قد رسخوا الصور والمفاهيم المشوهة والمقصودة في عقول وأذهان رجال اللاهوت؛ حين اعتمدوا على كتابات مستشرقي عصرهم، فاتسعت بجهودهم هوة التشويه التي نراها حتى اليوم سائدة في وسائل الأعلام الأوربية، وبدلا من رؤية الواقع دون موارية يحاول الغرب زعزعة الثقة في الإسلام بإبراز وجهات النظر التي لا تتعلق بروح الإسلام أو تعاليمه ] [٤٨] .

( إن مفهوم الاستشراق نفسه بدأ يخفت وطفق بعض المشتغلين بالشرق يفضلون أي إطلاق عدا إطلاق المستشرق، مثل: عالم الإسلاميات، أو المستعرب، أو الخبير في شؤون الشرق الأوسط وكان لهذا أثره على المعلومة عن الإسلام والمسلمين ) [٤٩]، لذا نتساءل هل حان الوقت لإلغاء كلمة الاستشراق كما ورد في مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق في مقالة :"إلغاء مصطلح الاستشراق" فجاء فيه :

يجب أن نتوقف عند القرار الغربي بالتوقف عن استخدام مصطلح استشراق أو كما قال أحد مستشرقيهم[٥٠] إن هذا المصطلح قد ألقي به في مزابل التاريخ، فقد رأى الغرب أن هذا المصطلح ينطوي على حمولات تاريخية ودلالات سلبية وأن هذا المصطلح لم يعد يفي بوصف الباحثين المتخصصين في العالم الإسلامي، فكان من قرارات منظمة المؤتمرات العالمية في مؤتمرها الذي عقد في باريس عام ١٩٧٣ : بأن يتم الاستغناء عن هذا المصطلح، وأن يطلق على هذه المنظمة (المؤتمـرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا ICHSANA) ( وعقدت المنظمة مؤتمرين تحت هذا العنوان إلى أن تم تغييره مرة ثانية إلى (المؤتمرات العالمية للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية ICANAS).( وقد عارض هذا القرار دول الكتلة الشرقية (روسيا والدول

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

التي كانت تدور في فلكها، ومع ذلك ففي المؤتمر الدولي الخامس والثلاثين للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية الذي عقد في بودابست بالمجر كان مصطلح استشراق ومستشرقين يستخدم دون أي تحفظات، مما يعني أن الأوروبيين الغربيين والأمريكيين هم الأكثر اعتراضاً على هذا المصطلح، ولعل هذا ليفيد المغايرة بحيث يتحدثون عن المستشرقين ليثبتوا أنهم غير ذلك بل هم مستعربون Arabists أو إسلاميون Islamists أو باحثون في العلوم الإنسانية Humanists أو متخصصون في الدراسات الإقليمية أو الاجتماعية أو الاقتصادية التي تختص ببلد معين أو منطقة جغرافية معينة، أما موقفنا نحن من هذا التخصص أو التخصصات فإنه يسعنا ما وسع الغربيين فإن هم اختاروا أن يتركوا التسمية فلا بأس من ذلك شريطة أن لا نغفل عن استمرار اهتمامهم بدراستنا والكتابة حول قضايانا وعقد المؤتمرات والندوات ونشر الكتب والدوريات حول العالم الإسلامي واستمرار أهداف الاستشراق، وأن لا يصرفنا تغيير الاسم عن الوعي والانتباه لما يكتبونه وينشرونه)[51] .

ولكن تغيير لفظ الاستشراق يعطي لمتلقي إنتاج المستشرقين القبول؛ إذ ستحمل سمات الباحثين في العلوم الإنسانية والمهتمين بالعلوم الإقليمية والمختصين في العلوم الإسلامية، وهذا يعني كسر حاجز الحذر وضرورة الاهتمام بتنقيح دراساتهم وهنا الطامة الكبرى؛ إذ سيصلون إلى مبتغاهم الأزلي .

ونخلص مما سبق إلى أن ( المستشرقين هم الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية. والمستشرق أيضاً هو كل من يقوم بتدريس الشرق أو دراسته أو الكتابة عنه أو بحثه في جوانبه المحددة والعامة، سواء أكان ذلك الذي يقوم بالدرس أو الكتابة أو البحث مختصاً بعلم الإنسان (أنتروبولوجي) أو بمختلف أنواع العلوم أو مؤرخاً أو فقيه لغة (فيلولوجي)، وما يفعله المستشرق في هذا المجال هو استشراق. وإن مصطلح الاستشراق بالمقارنة مع مصطلح الدراسات الشرقية أو الدراسات الإقليمية، أقل تفضيلاً اليوم لدى المختصين لكونه يتضمن الموقف التنفيذي السلطوي للاحتلال الأوروبي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. بيد أن الكتبَ تُكتب، والمؤتمرات تُعقد، ومحورها الرئيسي هو "الشرق"، والسلطة التي يُرجع إليها هي سلطة "المستشرق" في قناعه القديم أو قناعه الجديد. وإذا اتخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطة للانطلاق محددة تحديداً تقريبياً، فإن الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، وذلك بإصدار تقارير حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، ووصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

وحكمه. وباختصار، إن "الاستشراق" هو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وإعادة صياغته والتحكم فيه، وعلاوة على ذلك فقد احتل الشرق مركزاً من القوة والسيادة، بحيث لم يعد بإمكان أي إنسان أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلاً متعلقاً به، دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوقة التي فرضها الاستشراق على فكره وعمله. وبعبارة أخرى فإن الشرق، وبسبب الاستشراق، لم يكن موضوعاً حراً للفكر أو العمل. ولا يعني هذا أن الاستشراق وحده، يقرر ويحتم ما يمكن أن يقال عن الشرق، بل إنه يشكل شبكة المصالح الكلية التي يُستحضر تأثيرها في كل مناسبة يكون فيها ذلك الكيان العجيب "الشرق" موضوع النقاش.)[٥٢] .

**المبحث الثالث: سيرة المستشرقة دراور**

هذه سيرتها كما كتبها الصابئة في مواقعهم:( ولدت أثل مي ستيفنسن - وهذا هو اسمها قبل الزواج - سنة ١٨٧٩ في لندن وقضت طفولتها المبكرة في نيو فوريست حيث كان والدها يعمل قسيسا في كنيسة بيرلي . وكانت تتردد في شبابها على جماعات الغجر في منطقة فوريست فتعلمت لغتهم . وعندما انتقلت عائلتها الى ساوث هامبتون بعد ان عين والدها رئيسا لأبرشية المدينة قامت بوضع قاموس عن لغة الغجر بعد ان استعانت بكتاب خاص عن قواعد اللغة السنسكريتية . وعلى الرغم من هذا القاموس لم ينشر في حينه الا انه عد دليلا على اهتماماتها اللغوية التي تخصصت فيها فيما بعد.

كانت أثل متفوقة في دروسها إلا أنه لم تتوفر لذويها الاموال الكافية لإرسالها للجامعة، فسافرت إلى ألمانيا لدراسة الموسيقى والعزف على آلة الكمان ولكن سرعان ما تملكها الملل فعادت إلى بريطانيا بعدما شعرت أن لديها الرغبة في الكتابة. التحقت أثل بمدرسة خاصة بالصحافة في لندن أتاحت لها تدريبا ممتازا في مجال مراجعة ونقد الكتب المعدة للنشر وكذلك إعداد التقارير وإجراء المقابلات الصحفية . وقد توفرت لها فيما بعد فرصة طيبة للعمل سكرتيرة لدوغلاس سليدن صاحب موسوعة Who Is Who المعروفة التي كان يتهافت عليها المشاهير لنشر أسمائهم فيها فتعرفت على كثير من الأدباء والمؤلفين والنقاد والمترجمين والمستشرقين والشعراء وأقامت نوعا من الصداقات مع بعضهم .

رافقت أثل سليدن وزوجته وابنه إلى جزيرة صقلية التي كان سليدن يعد كتابا سياحيا عن منتجعها الشتوي في ساراكوزا وكانت مهمة أثل هي جمع المعلومات المتعلقة بتاريخ وتراث وتقاليد شعب صقلية . وفي هذه الأثناء بدأ سليدن يناديها باسم (

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

ستيفانا ) تحببا، وبقي هذا الاسم مرافقا لها واصبح الجميع يناديها به، حتى عائلتها . وقد سافرت ستيفانا مع سليدن وعائلته إلى تونس هذه المرة لوضع كتاب سياحي عن معالمها وساهمت هي بكتابة بعض فصوله .

تولهت ستيفانا بتونس وشرعت بتعلم اللغة العربية والكتابة عن سحر هذه البلاد وشيوخها وأمرائها وآثارها الفريدة ومدنها القديمة كقرطاج، وبعد انتهاء مهمتها مع سليدن عادت إلى لندن وعملت في دار للنشر والتأليف ولكن حنينها لتونس جعلها تقترض بعض المال فعادت إليها بصحبة صديقة لها واقامتا في مدينة القيروان التي كانت مهدا لروايتها الأولى ( النقاب ) وكانت رواية رومانسية قامت بنشرها مؤسسة "ميلز اند بون ". لقيت هذه الرواية رواجا كبيرا مما أمن لها دخلا جيدا أتاح لها التجوال في منطقة الشرق الاوسط خلال السنين التالية، فسافرت إلى أسطنبول أولا ثم حيفا والقدس حيث ألتقت في جبل الكرمل بعبد البهاء الرئيس الروحي والديني للبهائيين واقامت صداقة حميمة مع بناته . توسم عبد البهاء في ستيفانا ذكاءا متوقدا إلا أنه لم يفلح في إقناعها باعتناق البهائية بالرغم من القائه المواعظ الدينية الطويلة عليها . وفي هذه الأثناء الفت روايتها الثانية ( جبل الله ) التي مازال البهائيون يعتزون بها أيما اعتزاز.

أبحرت ستيفانا في عام ١٩١٠ من القاهرة جنوبا على متن زورق حكومي في النيل باتجاه السودان مخترقا أراضي الدنكا والشيلوك التي تعج بالأفيال والتماسيح وألفت اثناء ذلك رواية ثالثة. وعند وصولها الخرطوم التقت بمحام انجليزي شاب يدعى أدوين دراور يعمل هناك فتوثقت علاقتهما وتزوجا في لندن في إجازة الصيف التالي، ورزقا ببنت هي مارجريت (التي أصبحت عالمة مرموقة بتاريخ وآثار الحضارة المصرية ) وولد هو بيل. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى التحق أدوين بالجيش وعين ضابطا بشعبة تابعة للاستخبارات العسكرية البريطانية في نيويورك . أما زوجته ستيفانا فانتقلت مع طفليها مارجريت وبيل إلى وينشستر، وهناك كتبت عدة روايات كانت إحداها عن الغجر .

وبعد أن وضعت الحرب العظمى أوزارها في ربيع سنة ١٩١٩ عين أدوين دراور قاضيا في البصرة لإتقانه اللغة العربية ولضلوعه بالقوانين التركية - أي بعد انهيار الأمبراطورية العثمانية ووضع العراق تحت الانتداب البريطاني . وبعد سنتين تم نقله إلى بغداد مستشارا قانونيا للدولة العراقية قبيل تأسيسها فالتحقت به زوجته ستيفانا أواخر

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

سنة ١٩٢٠، وكانت سعيدة بقدومها إلى بلد عربي، بالرغم من قلقها على طفليها اللذين تركتهما في أنجلترا برعاية جدتهم وجدهم لأبيهم

كان السفر من بريطانيا الى العراق عن طريق البحر يستغرق وقتا طويلا لكونه يمر حول الجزيرة العربية ومن ثم إلى الخليج فالبصرة، إلى أن قامت شركة ( نيرن أخوان ) بتسيير رحلات برية من بغداد إلى دمشق عبر الصحراء بواسطة سيارات مكشوفة ثم بالباصات، وكانت الرحلة تستغرق يومين . ومن دمشق كان باستطاعة المسافر إلى أنجلترا أن يكمل رحلته إلى لبنان و من ثم إلى حيفا حيث يستقل أحد المراكب المتوجهة إلى جنوا أو مارسيليا ومن هناك إلى كاليه في فرنسا بالقطارات ثم بالعبارات الى دوفر ومنها إلى لندن. وقد قامت السيدة دراور بهذه الرحلة أربعا وثلاثين مرة على الأقل قبل تسيير خط سكك حديد موصل ـ حلب ـ أسطنبول الذي كان استهلالا لتسيير قطار الشرق السريع المعروف .

لقد وجدت ستيفانا دراور نفسها في مكان مألوف فاختلطت بالعراقيين ودارت في شوارع وأزقة واسواق بغداد وتعرفت على طبيعة الناس على العكس من باقي زوجات الموظفين والضباط البريطانيين اللواتي كن يمضين وقتهن بلعب ( البريدج ) والتنس والسباحة في النادي البريطاني المعروف حاليا بنادي ( العلوية ). وسافرت إلى الموصل وإلى الشيخ عدي والتقت باليزيدين وذهبت حتى مضارب عشائر شمَّر في بادية الموصل واستقبلها الشيخ عجيل الياور ورحب بها . وبتشجيع من زوجها عملت دراور على جمع الموروث الفولكلوري العراقي، وكانت مهتمة إلى حد بعيد بالقصص والحكايات الشعبية تستمع لرواتها وتدون ما يحكوه لها. وكانت إحداهن، وتدعى ( ليلى )، تزورها وتجلس معها الساعات الطوال في حديقة دارها وهي تروي لها ما تحفظه. وقد جمعت هذه الحكايات في كتاب أصدرته سنة ١٩٣١ وكان بعنوان ( حكايات شعبية من العراق ) .

ولدى اقامتها في البصرة لفت انتباهها مجموعة غريبة من الناس تعيش في مناطق الأهوار ودلتا نهر دجلة وكذلك في المحمرة والأهواز[٥٣] وكانت بيوتهم من البردي والقصب ويمتهنون صناعة القوارب والحدادة وصياغة الفضة والذهب ويتحدثون بالعربية ولكن لهم لغتهم الخاصة التي يدونون بها كتبهم المقدسة التي استنسخوها جيلا بعد جيل، ويطلقون على أنفسهم تسمية المندائيين أو منداييي، ولكن جيرانهم العرب يسمونهم الصبّة ومفردها صَبّي، وتتمحور طقوسهم حول كوخ من القصب

ISSN : 2410-1818-
ISSN : 2410-521X-

يسمونه ( مندي ) وتشمل هذه الطقوس الاغتماس بالماء الجاري، ويقوم بها رجال دينهم الملتحون كما تشتمل هذه الطقوس على وجبة طعام قدسية لا تختلف كثيرا عن وجبة التناول المقدسة لدى المسيحيين مما جعل الغربيين يسمونهم مسيحيو يوحنا المعمدان. لقد أثارت هذه الطائفة فضول دراور الشديد فقررت التقرب من المندائيين فرحبوا بها كثيرا وأبدوا استعدادهم لمعاونتها في التعرف على لغتهم ودينهم وعاداتهم وطقوسهم، فقضت الساعات الطوال وهي تراقبهم أثناء تأديتهم مراسيم ديانتهم وطقوسهم وتدونها بدقة وبكل تفاصيلها في سجل خاص وتلتقط لهم الصور الفوتغرافية بآلة التصوير التي لا تفارقها .

وفي عام ١٩٢٣ نشرت دراور كتابها الثاني أثناء وجودها في العراق وكان بعنوان (على ضفاف دجلة والفرات) ضمنته فصلا كاملا عن المندائيين كان بعنوان ( شعب غريب الأطوار) دونت فيه وبشكل مفصل طقوس التعميد المندائية، كما أشارت إلى بعض كتبهم المقدسة. وقد طلبت دراور من بعض رجال الدين المندائيين نسخ بعض الكتب المندائية والدواوين المقدسة فتم لها ما أرادت . وكانت دارور تسافر من بغداد - محل إقامتها - إلى العمارة مرة واحدة على الأقل في كل سنة لتلتقي بالمندائيين هناك ولكي تستكمل بحوثها عنهم وخصوصا في أيام عيد الخليقة الذي يطلق عليه العامة (البنجة) أي الخمسة أيام المقدسة التي تتوافق مع أعياد الربيع .

ومنذ بدايات اهتمامها بهذه الطائفة صممت دراور على تعلم اللغة المندائية فاستعانت لهذا الغرض بأحد معارفها في فيينا ليحصل لها على أعمال المستشرقين الذين سبقوها بدراسة النصوص المندائية مثل البرفسور ليدزبارسكي ونولدكه والسيوفي وآخرين كخطوة مهمة أولى، وبدأت بتعليم نفسها ذاتيا اللغة المندائية . ولصعوبة هذه اللغة وعدم توفر قاموس خاص بها يساعدها في هذه المهمة، شجعها الدكتور موسيس كاستور على البدء في عمل قاموس مندائي كما بين لها طريقة عمل القاموس وذلك بتدوين كل كلمة على بطاقة منفصلة وفق حروفها الأبجدية . وفعلا أوصت دراور على صندوق معدني ذي أدراج خشبية تحتفظ فيه بالبطاقات مفهرسة. وفي عام ١٩٣٧ قامت بنشر كتابها الشامل عن المندائيين وكان بعنوان ( مندائيو العراق وايران ) والذي قام بترجمته إلى العربية فيما بعد كل من المندائيين نعيم بدوي وغضبان رومي باسم (الصابئة المندائيون).

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

وفي عام ١٩٤٢ أندلعت أزمة سياسية في العراق، وكان يرزح تحت الانتداب، تمثلت بحركة رشيد عالي الكيلاني ضد حكومة نوري السعيد الموالية لبريطانيا، فاحتمى الموظفون البريطانيون داخل مبنى السفارة البريطانية وكذلك في سفارة الولايات المتحدة الأمريكية التي لم تكن قد دخلت الحرب العالمية الثانية بعد. أما النساء والأطفال البريطانيون فتم إجلاؤهم بما خف حمله وهو عبارة عن حقيبة ملابس واحدة لكل عائلة بناء على الأوامر التي وصلت من لندن إلى السفارة البريطانية في بغداد على عجل. وقد رفضت دراور مغادرة العراق ما لم يسمح لها بأخذ الصندوق الثمين الذي يحتوي على القاموس المندائي وآلتها الكاتبة وكتبها ومدوناتها الخاصة بالمندائيين. وبناء على إصرارها صرح لها بذلك فغادرت مع البقية إلى البصرة ومن ثم بالباخرة إلى الهند. وأثناء فترة بقائها في الهند اطلعت عن كثب على طقوس (البارسي) الشبيهة بالطقوس المندائية ودونت الكثير من الملاحظات عنها والتي ضمنتها في كتابها على شكل هوامش ومقارنات .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عادت دراور إلى بريطانيا وعكفت على ترجمة الكتب والنصوص المندائية ونشرها وعلى إكمال القاموس المندائي . وفي هذه الأثناء منحت بريطانيا زوجها "أدوين دراور" لقب فارس لأداءه المتميز في خدمة التاج البريطاني، ولكن صحته تردت بعد ذلك وتوفي في عام ١٩٥١ نتيجة عجز أصاب كليتيه بسبب حرارة الصيف اللاهبة التي تعرض لها أثناء خدمته في العراق. وبعد وفاة زوجها قررت ستيفانا الانتقال إلى مدينة أوكسفورد حيث كان يسكن العديد من زملائها الباحثين وأصدقائها المقربين، وكان قرارا صائبا إذ نعمت بزياراتهم التي خففت عنها وحدتها وهي في بيتها الصغير، كما أن سكنها بالقرب من جامعة أوكسفورد أتاح لها ارتياد مكتبة (بولدين) الضخمة والتابعة للجامعة بسهولة ويسر .

ومن أجل ان يكون عملها مستوفيا كل شروط البحث العلمي أدركت دراور بأنه يترتب عليها القيام بتسجيل صوتي للغة المندائية مباشرة من رجال الدين المندائيين أثناء تأديتهم لطقوسهم الدينية، فعادت إلى العراق سنة ١٩٥٢ وبدأت بتنفيذ هذا المشروع بعد أن ساعدتها شركة نفط العراق باحضار آلة التسجيل جوا . كما تبرع أحد موظفي الشركة المذكورة بتزويدها بكاميرا سينمائية وتطوعت زوجة ذلك الموظف بمرافقتها إلى العمارة ومناطق الأهوار حيث يقيم المندائيون لمساعدتها في هذا العمل، فسافرتا إلى قلعة صالح وأنجزتا تسجيل الفيلم بالرغم من مرض دراور الشديد نتيجة أصابتها بالملاريا . وقد عرضت دراور الفيلم أول مرة أثناء انعقاد المؤتمر الشرقي في جامعة

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

كامبردج عام ١٩٥٣ والذي حضره جمع غفير من العلماء المختصين من كل أنحاء العالم. وفي أوكسفورد استمرت بالعمل على إنجاز القاموس المندائي ولكنها شعرت أنها بحاجة لمن يتقن اللغات السامية، فقامت باستدعاء شاب تشيكي يدعى "رودولف ماتسوخ "يعمل أستاذا في جامعة طهران لمساعدتها في إنجاز القاموس . كان التعاون مثمرا وتكللت جهودهما المشتركة بإصدار أول قاموس للغة الآرامية المندائية وذلك في اوائل سنة ١٩٦٣ .

دأبت دراور على شراء الكتب المندائية من رجال الدين الصابئة ومنهم الشيخ نجم فجمعت نحو ستين منها كونت مجموعة نادرة قامت بإهدائها فيما بعد إلى مكتبة بولدين مع التسجيلات الصوتية والأفلام لينتفع منها طالبو العلم، وقد ترجمت هي تسع من هذه الكتب النادرة من المندائية إلى الأنجليزية.

منحتها جامعة أوكسفورد شهادة الدكتوراه الفخرية عام ١٩٥٤ لبحوثها المهمة في مجال دراسة طائفة الصابئة المندائيين مما أسبغ عليها سعادة غامرة عوضتها عن عدم التحاقها بالجامعة عندما كانت شابة في مقتبل العمر، كما منحتها جامعة ( أوبسالا) السويدية شهادة مماثلة تقديرا لجهودها العملية الكبيرة مجال الصابئة المندائيين . وفي صيف عام ١٩٦٤ استدعتها السفارة الألمانية في لندن وقلدتها نيابة عن الحكومة الألمانية أعلى وسام في الدراسات السامية وهو وسام ليدزبارسكي تثمينا لها على ما قامت به من بحوث وتراجم حول المندائيين والتي استمرت لأكثر من نصف قرن.

قضت الليدي دراور أيامها الأخيرة بسلام في دار لرعاية المسنين شمال لندن وكان يزورها أفراد أسرتها وأصدقاؤها وزملاؤها باستمرار وتوفيت سنة ١٩٧٢ عن عمر ناهز ٩٢ عاما. وقد دونت في مذكراتها عن طائفة الصابئة المندائيين ما يلي: " أن تتمكن طائفة قديمة من البقاء حتى وقتنا الراهن هو أمر مثير للعجب ، وأن تصان الكثير من كتبهم وتعاليمهم السرية ودواوينهم الطقسية هو أقرب ما يكون للمعجزة[٥٤]. إن هذه الطائفة تضمحل بسرعة، رجال دينهم طاعنون في السن وأعداد المؤمنين منهم في تضاءل سنة بعد أخرى . إني أشعر بالفخر كوني عاصرت عن كثب دينا ربما سيندرس بعد حين")[٥٥].

ملاحظات على سيرتها الذاتية:

١ - تقلب مزاجها بين موسيقى وتعلم لغات.

٢ - اهتمامها بتعلم لغات جديدة فبدأت بلغة الغجر ثم العربية ثم المندائية.

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

٣ - اهتمامها بالدول العربية نتيجة احتلال الغرب لها كصقلية وتونس والسودان والهند وفلسطين وتركيا و العراق وعن تونس كتبت رواية "النقاب " غشارة إلى نقاب المسلمات التونسيات اللاتي يفتخرن به.

٤ - علاقتها بالأديان فزارت معقل الديانة البهائية وكتبت رواية عنهم " جبل اللّه" وهي رواية يثني عليها البهائيون ثم علاقتها بديانة الصابئة وديانة البارسي في الهند وغيرها كما يظهر في تعليقها على كتاب الصابئة المندائيون.

٥ - علمت نفسها ذاتيا اللغات التي ترغب فيها.

٦ - عمل زوجها الخطير: مستشار قانوني للدولة العراقية، ضابط بشعبة الاستخبارات العسكرية البريطانية في نيويورك،قاضيا في البصرة وهذا له أثره على المجتمع المسلم ودوره في تشجيعها على الاهتمام بالمحتمع العراقي مما حدا بالحكومة البريطانية لتقليده لقب فارس.

٧ - جلدها في تحقيق هدفها فرغم إصابتها بمرض الملاريا أكملت التسجيل الصوتي للغة المندائيين وظلت نصف قرن في بحثها عن الصابئة المندائيين.

٨ - دقتها في التسجيل الصوتي لقاموسها عن اللغة المندائية.

٩ - تدوينها لأول قاموس عن اللغة المندائية.

١٠ -تقدير العالم الغربي لجهودها فقد منحت مرتين شهادة الدكتوراه الفخرية من بريطانيا والسويد كما قلدتها ألمانيا أعلى وسام في الدراسات السامية.

١١ -جادة في تحقيق أهدافها والوصول إليها والصبر على ذلك[٥٦] .

**المبحث الرابع: هدف المستشرقة دراور من دراستها للصابئة المندائيين**

لقد كشف الصابئة أنفسهم عن الهدف الحقيقي للعمل الدوؤب الذي قامت به المستشرقة درارو في ديانتهم لسنوات طويلة وهو:تكوين خلايا تجسسية لصالح بريطانيا ضد حكومة العراق وقتها للسعي لتدميرها .

يذكر صابئي معاصر للمستشرقة دراور في مذكراته هذه المعلومة المهمة: فكتب: إنها يهودية متزوجة من نصراني ويذلت جهدها لتعلم اللغة المندائية والبحث في ديانة الصابئة لغرض في نفسها وهو إيجاد صراع بينهم وبين الحكومة العراقية في وقتها والذي كان وقت الاحتلال البريطاني للعراق يقول: (كانت المسز دراور هي زوجة المستشار القانوني لوزارة العدل وكانت يهودية الدين متزوجة من مسيحي وكانت تدرس وتبحث ديانة الصابئة وأصولها وتاريخها ومعتقداتها، وقد تعلمت اللغة المندائية

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

إلى جانب تضلعها في العبرانية مما سهل لها دراسة جدية ومستمرة عن الصابئة والصابئيين، وفي عام ١٩٣٠ جاءت إلى قلعة صالح لاستكمال أبحاثها في الظاهر. وفي أحد الأيام جمعت رؤساء أفخاذ الصابئة مع كبار السن منهم في دار بيت شيخ سام ودعيت من مجملهم وبعد استراحة قصيرة قالت: جمعتكم الآن لأنني أحب أن أعاونكم. أنتم تعلمون أن العراق على وشك دخول عصبة الأمم المتحدة ومن الأمور الضرورية أن تكون للصابئة حقوق معروفة وثابتة ويذكر اسمهم في الدستور، وهذا لايتم إلا حين يقدم الصابئة عريضة إلى عصبة الأمم بذلك .لقد أحضرت العريضة معي. وأخرجتها من حقيبتها و فتحتها .وما عليكم إلا توقيعها. التفت الحاضرون وهم أكثر من ثلاثين شخصا بعضهم إلى بعض وسكتوا ثم التفتت المسز دراوور إلي وقالت: وأنت يا شيخ غضبان ماهو رأيك؟ قلت: عاش الصابئة منذ ألوف السنين في هذه البلاد ولم يتدخلوا في شئون الحكم وعاملنا المسلمون والعرب معاملة طيبة ، ولم يتدخلوا في شئوننا الدينية أو يعارضوا معتقداتنا ، وقد نلنا منهم الحماية والرعاية الكافيتين، وعليه فإنني أرى من الضروري أن لا نقف في ساعة محنة العراق ضد الواقفين ضده؛ لأن في ذلك نكرانا للإحسان ورباط الأخوة الذي نرتبط به معهم ومع ذلك فالحاضرون أكبر مني سنا وأكثر علما وأعمق دراية بالأمور وهم أقدر مني على إبداء آرائهم بصراحة وأمانة لفائدتهم ولفائدة أبناء الطائفة )، ثم ذكر أنه بعدما قال رأيه وافق عليه رئيس الصابئة في وقتها (فطوت المسز دراور عريضتها وقالت: الأمور مرهونة بكم فإذا كنتم لا توافقون على تقديمها فالأمر يعود لكم، وعلى أثر ذلك انفض الاجتماع وسافرت هي إلى منطقة العمارة بالعراق) وهناك تقدمت بشكوى كيدية ضد المتحدث عند مدير معارف منطقة العمارة ولما قابله شرح له الأمر وأنها جاءت بعريضة شكوى ضد الحكومة العراقية تريد تقديمها إلى عصبة الأمم فاستغرب كل الاستغراب من شكواها )[٥٧] .

وأضيف بأن المستشرقة دراور كانت صبورة على تحقيق أهدافها الاستخباراتية والتدميرية فقد كانت تأتي للعراق في خط سفر طويل جدا ومرهق جدا (كان السفر من بريطانيا الى العراق عن طريق البحر يستغرق وقتا طويلا لكونه يمر حول الجزيرة العربية ومن ثم إلى الخليج فالبصرة، إلى أن قامت شركة ( نيرن أخوان ) بتسيير رحلات برية من بغداد إلى دمشق عبر الصحراء بواسطة سيارات مكشوفة ثم بالباصات، وكانت الرحلة تستغرق يومين . ومن دمشق كان باستطاعة المسافر إلى أنجلترا أن يكمل رحلته إلى لبنان ومن ثم إلى حيفا حيث يستقل أحد المراكب المتوجهة

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

إلى جنوا أو مارسيليا ومن هناك إلى كاليه في فرنسا بالقطارات ثم بالعبارات إلى دوفر ومنها إلى لندن. وقد قامت السيدة دراور بهذه الرحلة أربعًا وثلاثين مرة على الأقل قبل تسيير خط سكك حديد موصل ـ حلب ـ أسطنبول الذي كان استهلالا لتسيير قطار الشرق السريع المعروف ). وهنا ننظر إلى هذه المستشرقة التي جابت عدة دول إسلامية ورأت قوة المسلمين عددا وأرضا وهي توقن أنه لو تركت للمسلمين حرية الحياة الكريمة لغدو قوة لا يستهان بها كما كانواسابقا .

أيضا لما وصلت العراق مع زوجها العسكري في الجيش البريطاني رأت أرض العراق تمتاز بأنها تضم عدة أديان وثنية يعيش أهلها في سلام مع المسلمين ولا يوجد تناحر أو اقتتال طائفي فكل ديانة يسكن أهلها منطقة تجمعهم بمعابدهم وتقاليدهم، بل وجدت المسلمين أنفسهم ينقسمون إلى سنة وشيعة فكانت العراق بالنسبة لبريطانيا المحتلة أرضا خصبة لتحقيق نظريتها ( فرق تسد) ولتدمير الوحدة العراقية وافتعال حرب أهلية وطائفية تأكل الأخضر واليابس كما نراه في عراق اليوم .

كما تمتاز بريطانيا وغيرها من دول الاحتلال بنفس طويل للوصول لأهدافهم؛ لذا عاشت دراور بينهم سنوات طويلة ثم أخرجت حقيقة ماللديها لعلها تصل إلى مبتغاها تقول في محاضرة لها بالجمعية الملكية للدراسات الأسيوية (وقد خططت للقيام برحلتين ربيع ذلك العام، الأولى إلى أهوار الجنوب - وهي منطقة "صيد" قديمة بالنسبة لي - والثانية إلى الشمال، كمحاولة لتشجيع أصدقائنا أينما وجدوا، كوسيلة متواضعة، ربما ليست ملائمة - لتوصيل قناعاتنا في النصر النهائي إلى المترددين والمشككين)[٥٨] كما تذكر أنها كانت تتحين الفرص للحديث عن الحرب.

دراور جعلت من البحث في الصابئة منفذا عمليا للاختراق الصليبي الذي يسعى إما لنشر النصرانية أو تشكيك أهل الأديان في صحة دينهم وهذا ملاحظ بربطها كل معتقد للصابئة بأديان متعددة كأنها تقول لهم أن دينكم بات مصبا لكل الأديان فلا تتمسكوا به على أنه خاص بكم ولكم خصوصيتكم بله يسعكم الدخول في أي ديانة أخرى لأن لها نصيبا في دينكم .

وحقيقة لا أدري هل تفطن الصابئة لهذا أم لم يتفطنوا؟ لأن منهم من تنصر وربما هناك من دخل في ديانة أخرى، وربما هناك من عاش بلا دين أصلا لكن الثابت أن من الصابئة المعاصرين من تنازل عن كثير من طقوسها وأبرزها الاغتسال من ماء جار .

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

دراور استهدفت من حياتها بين الصابئة سبر أغوارهم وأغوار غيرهم مما يمهد لخطط استراتيجية لتكريس الاحتلال الحالي أو المستقبلي فإن خرجت بريطانيا من العراق ظاهريا فإنها لابد من أن تغرس لها جذورا عميقة جدا تجعلها مقبولة فكرا وخدمة وهذا ملاحظ فالصابئة إلى الآن ما زالوا يكيلون الثناء والمدح لها ولغيرها من المستشرقين، لكنها حازت قصب السبق في المحبة والثناء والتبجيل. (قدمت ليدي درور محاضرتها عن سكان الأهوار في جنوب العراق في ١٢ حزيران ١٩٤٦ بعد عودتها من العراق، وعرضت أثناءها صوراً (سلايدات) عن الحياة في الأهوار. وعكست المحاضرة روحية ونمط تفكير البريطانيين في تلك اللحظة، عقب انتصار الحلفاء على ألمانيا النازية. وبالتأكيد كان نشاط الوطنيين العراقيين في تربية التلاميذ بروح حب الوطن والعداء للمستعمر البريطاني يمثل تعليماً مشوهاً معادياً للأجانب بنظر الغالبية الساحقة من البريطانيين. لكننا إن أزلنا هذه القشرة الاستعمارية من محاضرة دراور، نلمس مدى تعلقها بهذا البلد وإعجابها بشعبه) [٥٩] .

دراور تمثل نموذجا صارخا للجهد النصراني في خططه الاحتلالية الاستيطانية فليس كل القوة في الضرب بالأسلحة فهذه نافذة من النوافذ قد لاتأتي إلا بالكره والمقاومة،لكن هناك احتلالا ثقافيا عقديا إعلاميا له آثاره التي لاتنتهي على مر العصور، وهذا ماتقوم به دراور وكل المستشرقين (وكان المركب في انتظارنا عند مدرسة البنين. وبما أنهم كانوا واقعين تحت تشويه التعليم المعادي للأجانب، أصبح الأولاد المتحلقون عند الضفة ميالين الى الازعاج والخشونة. لكن بعض التعليقات المليحة ونكتة أو نكتتين سرعان ما بددت كل هذا، وعندما أرخينا المرساة وانطلقنا مع التيار، ودع جمعهم قاربنا بتلويح حميم) [٦٠]

أيضا نلاحظ أن دراور اهتمت باعتراف الجمعية الملكية الأسيوية بأمرين اثنين في حياة الصابئة السحر والنساء فلماذا ؟!!!!

## المبحث الخامس: سمات كتابة المستشرقة دراور عن الصابئة المندائيين

بالقراءة في ماكتبته المستشرقة دراور عن الصابئة المندائيين نجد أن كتاباتها اتسمت بالآتي:

١ - وصفت الليدي دراوربتفصيل دقيق كل ما وصلت إليه من طقوس المندائيين الذين هم في الأصل تقوم حياتهم كلها على طقوس مقدسة؛ لذا تعتبر كتابتها عنهم مرجعا أصيلا في الوقوف على ما سمحوا بظهوره رغم أنه لا يوثق فيه لأنهم

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

باطنيون حتى النخاع باعترافهم أنفسهم ومن ذلك وصف بيت العبادة لديهم ( المندى) وهو مكان إقامة طقوس التعميد والتكريس للكهان الجدد بطريقة تفصيلية دقيقة لأنها استغلت كل وقتها معهم لأجل ذلك حتى أنها قالت ( وقد سبق أن بحثت في الاشتقاق المحتمل لكلمة "مندا" بمعنى بيت العبادة ولا أستطيع أن أوضح لماذا قلبت كلمة "مندا" إلى مندي" في لغة الحديث والتي تعني صيغة الجمع والمنادي التي شاهدتها تختلف قليلا في الحجم لا في النسب أو في التخطيط العام وفي الأيام الخمسة التي تسبق البنجه يعتبر المندى غير طاهر؛ لأن تلك الأيام الخمسة مكرسة لقوى الظلام؛ ولهذا السبب كنت قادرة على تدوين ملاحظات دقيقة عن تركيبه ومقاييسه وعلى أخذ الصور الفوتوغرافية له) [٦١]

٢ - ربطها المستمر لمعتقداهم بالأديان الوثنية المجاورة كالبابلية والسومرية والمجوس وعبادة آلهة الماء والأعماق والشمس فهي تذكر ذلك بعد كل فصل من كتابها الصابئة المندائيون واعتمادها في ذلك على أبحاثها أو أبحاث مستشرقين مثلها حيث تقول ( إن السهول الغريني العظمى ما بين النهرين تقع في الشرق الأقصى والشرق الأدنى وهي على اتصال مستمر بكليهما ... فليس هناك بقعة أكثر خصبا منها لنمو الأفكار التوفيقية) [٦٢] ولا نقرأ للمترجمين نفيا لذلك أو زجرا كما فعل الصابئة العراقيين مع الباحث العراقي أ. عبد الرزاق الحسيني لما كتب عنهم أنهم وثنيون غضبوا وذهب للمحكمة متحدث عنهم وهو كبيرهم ومعه كتابهم المقدس ليثبت لهم أنهم أهل توحيد – كما يزعمون -؛ لذا اندهشت من سكوتهم عن المستشرقين بل كيل المديح لهم والهجوم على المؤرخين والمحققين من المسلمين .

٣ - بينت تمسكهم بالكهانة والتعاويذ والتمائم .

٤ - أكدت من خلال نقلها لطقوسهم على الغلو فيها مثل: عدد مرات الطقوس والعقوبة المترتبة على خطأ في التعميد به على الأنظمة القاسية التي يجب أن يلتزم بها كهانهم أثناء تطريسهم للكهانة وبعد ذلك، وحتى في طقوس الموت والزواج وغير ذلك.

٥ - حرصها على قراءة مخطوطاتهم ومراجعتها مع ماتشاهده لتتأكد وتطابق بين ماتراه وبين ماهو مدون ومتابعة دقيقة لما يدونونه عن غيرهم. فتقول ( قام الكنزفره [٦٣] بالدعاء الصامت في تضحية الطير وهو يواجه المندى[٦٤] جالسا على عقيبه ماسكا الحمامة بحيث تتحرك السكين في قطع رقبتها من الشمال إلى

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

الجنوب ... وقد قيل لي أن الكنزفره وهو يمسك بجناح الحمامة يدوس على جسمها بقدمه اليمنى الحافية وحين راجعت مخطوطة تصف هذا الطقس وجدت استعمال القدم اليمنى في ذبح الحمامة منصوصا عليه)[٦٥] ، ( وقد تأيد ماذهبت إليه إذ ذاك – تقصد مقالها عن بيت العبادة – بشواهد وأدلة من ديوان حران كويثه المخطوط الهام الذي أفلحت في الحصول عليه بعد جهد سنسن لقد وجدت فيه ما كنت أبحث وهي معلومات محددة عن جبل ماي الذي كثيرا مايذكر في الأساطير والحكايات الشعبية )[٦٦] .

٦ - من خلال ما دونته نلاحظ أن الصابئة لم يطلعوها على كل طقوسهم .ففي طقوس المندا بيت العبادة تقر بأن منها دخول كهان الصابئة للمندا وعدم دخول أحد معهم البتة لتلاوة أورادهم الخاصة وأيضا حتى في الخارج من طقوسهم تلاوة تعاويذات بصمت فلا تسمع البتة[٦٧] .

٧ - تقر أنها شاهدت بعض طقوسهم في الظلام فتقول ( وقد رأيت في الظلام كاهنا يحفر قبرا للحمامة والفطائر ويدفنها ويذهب إلى البيت ) [٦٨] وتصرح بأنها رأت طقوسا لهم في ذبح القرابين في العتمة على ضوء الشموع[٦٩] .

٨ - صرحت بتضارب بعض روايات كهانهم مثل أن هناك روايتان مختلفتان لكاهنين لقصة واحدة [٧٠] .

٩ - رغم أنها يهودية فهي تذكر كره الصابئة لليهود حتى أنهم غيروا بعض كلماتهم القريبة من لغة اليهود[٧١] .

١٠ - إلصاق بعض طقوس الصابئة بمبتدعة المسلمين على أنها هي الإسلام فتربط عقيدة تقديس الماء عند الصابئة بعقيدة غلاة الصوفية فتقول: ( وليست الفكرة خاصة بالصابئين فهناك أسطورة لدى بعض المسلمين تقول إنه بعد استشهاد المنصور الحلاج ملأت أخته إناء من ماء النهر واختبأت روح أخيها في ذلك الإبريق وحين شربت من الماء أصبحت حاملا ثم ولدت ولدا بعد تسعة أشهر )[٧٢] .

١١ - اهتمت بوصف حياتهم البيئية بدقة سواء بيوتهم من القصب أو أنهارهم المتوسطة وأوانيهم وصفات نسائهم وضيافتهم وصبرها على ذلك[٧٣] .

١٢ - أكدت دراور ان دينهم ليس له مؤسس ( وليس للدين الصابئي مؤسس)[٧٤]

١٣ - بينت أن الكتب المندائية ليست مطبوعة وقد قام (بنسخها باليد الكهنوتيون طيلة قرون عديدة ... فحتى كتاب الكنزه ربه لا يمكن اعتباره كتابا متجانسا فهو مجموعة فقرات غالبا ما تتناقض فتعود إلى مراتب مختلفة من

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

التعاليم الصلبة ... وتتنوع الفقرات في كتابي " كنزه ربا " و" دراشا يهيا " لدرجة أن الدليل على زمن فقرة ما لا يمكن أن يتخذ دليلا على زمن فقرة أخرى ... ومهما كا زمن الفقرات المختلفة فإن النساخ قد قاموا باستمرار بحذف أو إضافة العبارات التي رأوها ضارة أو مارقة والأثر الذي تتركه قراءة كتب الصابئيين المقدسة أنه قد كان حتى في الزمن الذي جمعت فيه فقرات أولية دينا مرنا كان قد بلغ مرحلة أصبحت فيها التعاليم الأولى غامضة وغير مفهومة تقريبا وقد أدخلت شروح وتعليقات على النص) [٧٥] .

١٤ - تثير الشكوك حول نسخ مخطوطاتهم المقدسة فتقول مثلا (وقد احتفظت بوصف هذه الصلاة حتى الآن ... ولم أستطع العثور على ما هو مقبول في النصوص المتبقية ولهذا يصبح التفسير صعبا) ثم تقر هي وجهة نظرها فتقول (وأنا أميل على اعتبار الصلاة بأجمعها تضرعا لأرواح الأسلاف الذين يقدرون لاعلى عون المتوفي الذي تقام باسمه المراسم فحسب بل وعلى عون الموتى الآخرين والأحياء على الأرض لتحريرهم من أعبائهم ولتخفيف خطاياهم ) ثم تقرر أن نسختها أصح النسخ فتقول بعد ذلك: (ولهذا وبسبب أن جميع النسخ ليست تطابقة وقد شرع أحد الكهان بتصحيح نسختي حين قرأها من حيث النحو فأنا أدون النص الآتي مع اعتقادي بأن نسختي هي أكثر النسخ صحة) [٧٦]،وهنا نتساءل كيف جزمت بصحة مالديها بله بأنها أصح النسخ؟ وبالتالي كيف نثق في طرحها؟!!!

تذكر تناقض كتبهم وفقد أجزاء من صفحاتها وبينت فيما يتعلق بسيرة يحيى عليه السلام فتذكر أنها حصلت على كتابهم المقدس حران كويثه فقالت:( والمخطوط ناقص والبداية فيه مفقودة ) ثم تقول: ( وبعد ذلك تأتي ولادة يحيى المعجزة وهنا اختلاف في القصة بينها وبين قصة ولادة يحيى في كتاب تعاليم يحيى (دراشه يهيا) وليس هناك ذكر لتعميد يحيى للمسيح كما هو الحال في دراشه يهيا أو تعميد يحيى لمنداد هيي ويظهر المخطوط يحيى بأنه معلم ومعمد وشاف ) [٧٧]

١٥ - تربط كهانهم بالسحر وكتابة التعاويذ والرقى وأنه عمل أصيل لديهم [٧٨] حتى أنهم كتبوا لها تعويذة للحب ولتجعل وجهها متالقا جميلا وأعطوها إياها [٧٩] .

١٦ - استفادت من المستشرقين السابقين لها فلم تبدأ من الصفر.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

١٧ - تعلمها للغة المندائية وجمعها قاموسا للغتهم كتابيا وصوتيا جعلها تقرأ مايقعتحت يدها من كتبهم وتقارن وتظهر أنها العالمة المتميزة.

١٨ - بينت أنها أرتكبت عملا يعتبر فضيحة في نظر الصابئة وأنها لم تفعله ثانية وهو: أنها ربطت نسخة من كتاب يحيى عليه السلام بالجلد لأن كهانهم يربطون كتبهم المقدسة بأشرطة من الخام الأبيض[٨٠].

١٩ - الفرق بين المستشرقين وبين المستشرقة دراور( كتب علماء الساميات الكبار عن المندائية استناداً إلى مؤلفات المندائيين وهم في مكاتبهم في برلين أو لندن، مثل العلامة نولدكة والمستشرق العبقري ليدزبارسكي)[٨١] بينما دراور عاشت بينهم سنوات طويلة.

**نظرة دراور لمعتقد الصابئة:**

١ - (أن لب الدين الصابئي وجوهره يقوم على عبادة قوانين الحياة والخصب فالحياة العظمى كما لمحنا سابقا " تجسيد سطحي " يكون الحديث عنه دائما بصيغ الجميع المبهمة وهكذا يظل تجريدا غامضا )[٨٢] .

٢ - ترى أن اسمهم الحقيقي " المندائيون " وأن كلمة الصابئة مأخوذة من الكلمة المندائية "صبا" ومعناها الاغتسال في الماء[٨٣] .

٣ - أن كتبهم محرفة ومن وضع رجال دينهم .

٤ - ترى أن دينهم أقرب إلى المعتقدات الإيرانية[٨٤] .

٥ - ربطت دينهم بعبادة الكواكب والبروج وأن ( الكتابات المحفوظة لدى الكهان لا تصف الجوانب الفلكية للأيام يوما بيوم فقط بل وساعة وساعة بحيث يمكن تدبير شئون الحياة بنجاح)[٨٥] .

٦ - اختلاف الصابئة حول بعض الحروف أثر على المعنى الديني لديهم (تعتقد دراور أن ليس ثمة اتفاق بين الصابئة حول معاني بعض الحروف واتفاق حول بعضها الآخر وتأتي بمثال عن كاهن ومثقف ديني ومن عائلة كهنوتية أعطيا أمامهما تفسيرين غير متطابقين للحروف)[٨٦]، ونجدها تتعامل مع مصطلحاتهم ولغتهم بتردد أحيانا لربطها بين لغتهم وتاريخهم ومن يجاورهم[٨٧].

٧ - اعتمادهم على التنجيم ( تقرر أكثر الحوادث الرئيسة في حياة الصابئة باللجوء إلى الكهان الذين يخبرونهم عن اليوم السعيد للزواج أو عن وقت إرسال الوليد إلى المدرسة أو الشروع في عمل جديد أو التهيؤ للسفر)[٨٨].

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

٨ - تشاؤمهم من أيام معينة [٨٩] .

## المبحث السادس: إنتاجها العلمي عن الصابئة المندائيين

تؤكد المستشرقة دراور أن ( المراجع التاريخية عن الصابئة قليلة والشيء الوحيد التاريخي بهذا الشأن موجود في الكتاب الثاني عشر من "الكنزه ربا") ... وأغلب النسخ التي تدارستها الليدي دراور ليست قديمة) [٩٠]، كما تقول: (لقد بذلت جهدا لمحاولة سرد ما شاهدته وما سمعته وما لاحظته عن الصابئين في العراق وإيران، وقد استمرت هذه الملاحظات بضعة أعوام وأنجزت خلالها قدرا معتبرا من بينات جديدة تتناول العقائد والعادات والطقوس وعمل الرقى والتعاويذ) [٩١] .

**من إصدارات المستشرقة دراور عن الصابئة المندائيين:**

١ - المندائيون في العراق وإيران وهو قسمان :القسم الأول يتناول تاريخهم ومعتقداتهم وترجم باسم الصابئة المندائيين والثاني: حكايات شعبية وترجم أيضا باسم أساطير وحكايات شعبية مندائية، وكلاهما حصلت عليهما بالذات القسم الأول المشهور واليسير الحصول عليه[٩٢] .
٢ - قاموس مندائي.
٣ - على ضفاف دجلة والفرات وفيه فصل بعنوان ( شعب غريب الأطوار).
٤ - مقالة الجدلية المندائية.
٥ - محاضرة بالجمعية الملكية الآسيوية.
٦ - فيلم مصور عن الصابئة المندائية.
٧ - في بلاد وادي الرافدين [٩٣].
٨ - مقال جول المندى " بيت العبادة"في مجلة مصر والشرق عام ١٩٣٤

جمعت ٦٠ كتابا من كتب الصابئة بشرائها منهم وأهدتها لمكتبة بولدين وترجمت ٩ كتب منها ترجمت من كتبهم المقدسة حران كويثا "حران السفلى "، كتاب النياني" التراتيل والصلوات " ،كتاب سيدره إد نشامنا "كتاب التعميد المصبتا " ، كتاب أسفر ملواشه "سفر الملواشه " ،كتاب دراشا إد يهيا " تعاليم يحيى "،كتاب ترسر ألف شياله "اثنا عشر ألف سؤال " ،كتاب القلستا" عقد الزواج " ، كتاب ألمه ريشايا وألمه زوطه "الالم الرئيسي والعالم الصغير " ،كتاب مصبتا أدهبيل زيوا" عماد جبريل" كتاب أقمتهي وزرسته " كتاب الأحراز" ،كتاب ديوان أباثر" ديوان محاسبة الأرواح ووزنها " ، كتاب كنزا ربا [٩٤].

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

## المبحث السابع: ثناء بعض الصابئة المندائيين على المستشرقة دراور

هذه مقتطفات من مقالات لصابئة يثنون على جهود المستشرقة دراور وأنهم كانوا يخبرونها بالكثير من تفاصيل حياتهم وينسخون لها مخطوطاتهم ويسجلون أصواتهم :

١) (يعتبر الكنزبرا " نجم"من أثقف وأهم رجال الدين الذين قدموا العون والاستشارة وساهموا بتوفير وإعطاء وثائق ومخطوطات مندائية للمستشرقين، وخاصة الباحثة الليدي دراور، وتشير الدكتورة ج.ج. بكلي إلى أن أكثر من نصف المخطوطات المندائية المحفوظة في مكتبة بودلين في أوكسفورد وعددها ( ٥٤ ) مخطوطة قد تم الحصول عليها عن طريقه، ويقال أنه منح الليدي دراور كتاب ( كنزابرا ) نادر سبق وأن استنسخه جده عام ١٨٣٩ . وله الفضل الكبير بانتشار هذه المصادر وبالتالي ترجمتها والاستفادة منها بين الدارسين وأبناء الطائفة على السواء، كما أن الليدي دراور اعتمدت على الكثير من الشروحات والتفسيرات التي قدمها لها . وقد ظهر عام ١٩٥٤ في فيلم وثائقي صورته الليدي دراور وهو يؤدي المراسيم الدينية المختلفة، وله تسجيلات صوتية لقراءات دينية لأكثر من ١١ ساعة . الكنزبرا نجم يعقد مهر للسيد "حسان عبد الرزاق دفتر" في داره بالبصرة عام ١٩٧٥ مع اندلاع الحرب العالمية الثانية نهاية ١٩٣٩– ١٩٤٦ كانون الأول انقطعت الاتصالات بين الليدي والكنزبرا، وكانت الليدي ترسل له ورق لكتابة المخطوطات الدينية عن طريق السفارة البريطانية في العراق، وكان يراسلها ويشكو لها الاوضاع انذاك وعن شحة المواد الغذائية وكيفية توزيعها ببطاقات التموين خصوصا السكر، وأن الطحين المتوفر في الأسواق هو طحين شعير فقط، وفي مكان آخر من رسائله أخبرها عن فرحته الكبيرة بمناسبة دراسة ابنه الشيخ عبد الله على يديه .

رسالة شيخ نجم الى الليدي دراور بتاريخ ١٩٤٨/٢/٤ تضيف دراور أن الكنزبرا نجم لم يكن يأخذ أجورا من فقراء المندائيين نظير خدماته الدينية في مدينة اللطلاطة وأنه يشعر بسعادة ويكتفي بكلمة الشكر المقدمه له من الفقراء) [٩٥].

٢) (الكثير منا سمع بـ ( الليدي دراور ) والكثير من حاول معرفة من هذه السيدة الإنكليزية التي كان لها الفضل في اطلاع العالم بشكل واسع عن الديانة المندائية ومعتنقيها؛ إذ تعد كتابات ودراسات هذه الباحثة الأوربية عن الديانة المندائية والمندائيين من المراجع الدقيقة المعتمدة لما امتازت به من طول التأني

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

والدأب المتواصل والمشاهدة الميدانية والممارسة العملية الفعلية للعديد من الطقوس الدينية ( إذ كانت تلبس الملابس الدينية المندائية ( الرسته ) وتمارس العديد من المراسيم الطقسية بشكل عملي لذا جاءت بحوثها ودراساتها واضحة وافية دقيقة، لما بذلته من جهود مضنية بالبحث والمتابعة والدراسة والتحليل، يقول عنها الأستاذ ( جميس بروفيس ) من ( كلية كونكتيت ) في تقرير عن ( الليدي دراور ) منشور في مجلة ( دراسات الشرق الأدنى ) التي تصدرها جامعة شيكاغو العدد ( XX1V ) ((أن المعرفة الشخصية التي تمتلكها دراور تجاه الصابئة المندائيين في العراق وإيران مكنتها من الحصول على نصوص ليست متوفرة للعامة )) . ويستطرد قائلاً ( وهبت الليدي دراور حياتها لهذه النصوص الغامضة بشكل جنوني لاقتناعها بأن هذه النصوص تحفظ ديانة قديمة )، ويؤكد الكاتب فيقول ( إن ترجمة هذه النصوص هو عمل رائع قامت به دراور التي نجحت في إزالة الكثير من الغموض الذي يكتنف هذه النصوص وقد اعترفت دراور بأن المعنى هو ضمني وغير مباشر ) سوف أحاول في مقالتي هذه أن أسلط الضوء على بداية كتابات هذه الباحثة الرائعة في العراق، وما هي نوع كتاباتها عند وصولها العراق وكيف تحولت لدراسة الديانة المندائية وأحوال معتنقيها من مختلف النواحي، لتصبح من أشهر من بحث وترجم عن المندائية وطقوسها وعادات وتقاليد أهلها من الصابئة المندائيين في العراق وإيران إلى اللغة الإنكليزية، سأتناول هنا شيء من أول كتاب لها أصدرته عن العراق، قبل غورها في بحر المندائية، وهو كتاب "في بلاد الرافدين" والكتاب المترجم للعربية يقع في (٣٦٨ ) صفحة من الحجم الكبير وقد قام بترجمته الأستاذ ( فؤاد جميل ) عام ١٩٦١، وبعد كتابها هذا انكبت على دراسة المجتمع المندائي واللغة المندائية والكتب المندائية وكل ما يتعلق بالمندائية من بحوث ودراسات، وقد أتقنت العالمة ( الليدي دراور) اللغة العربية والمندائية والسريانية مما سهل عليها بحوثها ودراساتها وجاءت أكثر دقة وموثوقية، وقامت بزيارات ميدانية عديدة للاطلاع على أحوال وأوضاع الصابئة المندائيين في إيران، وحاولت إيجاد صلة لتقريب العلاقات وزيادة أواصرها بين الصابئة المندائيين في العراق وإيران . وما هي إلا سنوات من العمل الدؤوب المتواصل (( ١٤ عاماً )) حتى تصدر كتابها الأول عن الصابئة الموسوم ( المندائيون في العراق وإيران) عام١٩٣٧ وقد ترجم هذا الكتاب وكتب مقدمة له الأستاذان المرحومان ( نعيم بدوي وغضبان رومي ) عام ١٩٦٩،

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

وصدر تحت عنوان ( الصابئة المندائيون ).وقد كتب في مقدمة كتاب ( الصابئة المندائيون ) المترجم عن كتاب الليدي دراور (المندائيون في العراق وإيران ) ما نصه ((تعتبر المؤلفة في الوقت الحاضر المرجع الأجنبي الرئيسي في دين الصابئيين وفي لغتهم، وقد استمر بحثها عنهم مدة ربع قرن تقريباً بعد انتهائها من كتابها هذا المطبوع عام ١٩٣٧ ميلادية ونتج عن تتبعها ودراستها لدينهم وللغتهم ان قامت بالتعاون مع الدكتور ( رودلف ماتسوخ ) بتأليف قاموس في لغتهم اسمه ( قاموس اللغة المندائية ) وهو قاموس مندائي إنكليزي طبع عام ١٩٦٣ في اكسفورد . ) وقد كتب الأستاذ الباحث القدير ( عزيز سباهي ) في كتابه القيم ( أصول الصابئة المندائيين ) في صفحة ( ١٣ ) كشفا" في الأدب المندائي، جاء فيه ((يتميز الأدب المندائي بتنوعه وكثرة نصوصه حتى ليصعب على رجال الدين المندائيين ذاتهم، ناهيك عن عامة المندائيين أن يحصوا هذا الأدب ) ثم يقول في نفس الصفحة (( ولعل دراسة السيدة أ. س . دراور هي وحدها التي استطاعت أن تحصي كل ما دوّن من الأدب المندائي ) ثم يقدم الأستاذ ( عزيز سباهي ) في الصفحات ( ١٣، ١٤، ١٥، ١٦ ) من كتابه ( أصول الصابئة المندائيين ) كشفاً مفصلاً عن الأدب المندائي (( بستة مجاميع )) حسب تقسيم الليدي دراور له . أن العالمة الجليلة ( الليدي دراور ) قد عاشت حياة مليئة بالحيوية والنشاط والدراسة والبحث والكتابة والتحليل فجاء عطاؤها متميزا بإثرائه الكبير للثقافة والحضارة الإنسانية .وبذلك أصبحت هذه العالمة الفذة مشعلاً أنار الطريق لجميع الدارسين والباحثين والمهتمين بمعتقدات الصابئة المندائيين في شتى بقاع المعمورة) [٩٦] .

٣) نجد هذا الثناء من صابئي معاصرعلى دراور (عندما درست المستشرقة البريطانية الليدي دراور حياة المندائيين فهي لم تذهب إلى حواضر المدن حيث يسكن العض والأقرب إلى الحضارة بل ذهبت لتعيش معهم حيث كان يسكن الغالبية منهم في مدن الأهوار وهناك عرفت منهم طبيعة المكان وخصوصيته الاجتماعية والروحية) [٩٧]

٤) يقول مترجما كتابها الصابئة المندائيون: (غير أن كتاب " الصابئة المندائيون" يتميز فوق ما كتب عنهم أنه يصف وصفا دقيقا طقوس هذه الطائفة وشعائرها وممارساتها الدينية وهذا ما لانجده في جميع ما كتب أو ما سيكتب عنهم في المستقبل)[٩٨].

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

٥) نجد الصابئة المعاصرين يتنادون لمنح جائزة باسم جائز الليدي دراور.

ذلك لأنها أول من أزاح ستار الإهمال والجهل عن الطائفة، والتي كانت أغلب تاريخها منزويا في هامش الزمن والحياة، ولأنها أول من مدت جسرا للمعرفة والتعريف بتعاليمنا وطقوسنا بعد أن غسلتها بعصارة علمها واحتضنتها لأكثر من ٥٠ عاماً بقلبها وبصبرها الجميل بمعايشتها للأجداد والشيوخ، ولأنها أيضا أول من لامس طلاسم وخفايا كنوز الطائفة الدينية وفك أسرارها ولغتها وبفضلها صارت لنا بصمة دينية متميزة وواضحة في خارطة التاريخ المعاصر كدين توحيدي أسوة بأهل الكتاب، وبجهودها الكبيرة سعت لتخليص الطائفة وسمعتها مما لحق بها من تشويه وتحريف وتأويل وأكاذيب من قبل الأطراف الأخرى، مرحى لك يا سيدتي العظيمة؛ لأننا تمكنا ولأول مرة في التاريخ وبقدراتك الرائعة على التصالح مع ديننا والتعرف إليه والتحاور معه وملامسته عن قرب، بعيدا عن الموانع والنواهي والمحرمات، تكريما لك ولذكراك ألطيبة ولجهدك الانساني الرائع واعترافا بهذا الجميل ، أرى أن يتجسد اسمك (الليدي دراور) كي تمنح للدارسين والمبدعين والمشتغلين على دراسة التاريخ والدين المندائي وآفاق تطوره، على أن تمنح كجائزة تكريمية لأفضل البحوث والدراسات والترجمات في مجالات الطائفة ضمن احتفالية تقام في الوطن أو في المهجر)[٩٩].

**المبحث الثامن: التعقيب**

سأبدأ بذكر وقفات مهمة لمندائيين معاصرين ثم أعقب بكلامي

**التعليق الأول:** على حقيقة دوافع دراور في بحثها عن المندائيين ومجانبتها للحقيقة

(بسبب ما أثير مؤخراً في الأوساط المندائية من أفكار غير عصرية -كما يحدث بين الحين والآخر - وبسبب تلويح أحد الكتاب مرة بعد أخرى بعبارةٍ غريبة قالتها "لَيْدي" دراور عن مستقبل رجال الدين وتأثر أبنائهم وعموم المندائيين بالحضارة، فقد عمدتُ ثانية ًالى مشاهدة محاضرة المفكر التقدمي عزيز سباهي (ألقاها في كندا ١٩٩٦) مثلما كنتُ قد قرأتُ كتابه "أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتُهم الدينية" بعد صدوره (دار المدى، دمشق ١٩٩٦)١، فوددتُ أن أتحدث عن الفرق بين ما كتبَه عزيز سباهي من ناحية ومن الناحية الأخرى ما كتبتْه السيدة أو "لَيْدي" دراور (و"ليدي" Lady هذا لقب إنكليزي تمنحه العائلة المالكة لمن تختار من النساء ويقابل لقب "لورد" للرجال، حيث لا بد للمرأة التي يقع عليها اختيار العائلة المالكة لنيل هذا اللقب

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

أن تكون قد أدت خدمات معينة للتاج البريطاني) –لأن ما كتبتْه في مؤلفها الأساسي، "مندائيو العراق وإيران" الى جانب أكثر من عشرين كتاباً آخر في الموضوع وما يتعلق به، هو خلاصة أبحاثها في المندائية.

**القسم الأول**

قد يصح اعتبار الفرق بين البحثين مثالاً لما يجب أن يكون عليه الفرق بين أنواع من هذه البحوث فكتابات المندائيين عن المندائيين عموماً من جهة وكتابات غير المندائيين عنهم من الجهة الأخرى قد تجعل من بحث عزيز سباهي مثالاً يُحتذى به، وهذا مجرد طموح مستقبلي لما ينبغي أن تكون عليه الدراسات الاجتماعية عموماً، فمعرفة هذا الفرق في رأيي المتواضع تتسم بتشخيص الدوافع، قبل الاعتبارات الأخرى، خلف أنواع البحوث عن المندائيين أو غيرهم من المجموعات البشرية. وما كنتُ سأقول مثل هذا الكلام لو كانت كل تلك البحوث دون استثناء قد أُنجِزت في عهود إنسانية أو ضمن أنظمة اشتراكية أو على الأقل من قبل كتاب ذوي التزام انساني سامي المستوى كعزيز سباهي، وكما ينبغي أن تكون.

سوف أركز على بحث دراور الوصفيّ، عن المشاكل التالية التي تجعل بحث دراور يلي بحث سباهي في الأهمية العلمية والانسانية

قد يعترض أحدٌ فيما يتعلق بالمشكلة الأولى أدناه قائلاً: "لكن عزيز سباهي ليس أنثروبولوجياً هو الآخر" وهو قولٌ وجيه، فالباحث كاتبٌ سياسي يساري، وللدقة أقول أنه مفكر اشتراكي ويكتب في المسائل الشيوعية وتأريخها وقضايا الكفاح الوطني والعدل المجتمعي، وهو رجل أمين في ما يكتب ويقول؛لذا فإن دافع عزيز سباهي على البحث يختلف كلياً عن دوافع "ليدي" دراور، وأعتقد أن هذا الفرق بين شخصيّتَيْ الباحثَيْن هو السبب في الفرق بين البحثين، وهو ما وددتُ أن ألفت النظر إليه.

فما هي مشاكل بحث السيدة دراور؟

**المشكلة الأولى: السيدة دراور لم تكن باحثة أنثروبولوجية أصلاً.**

كانت إلى ما قبيل أن تبدأ كتابها "مندائيو العراق وإيران" كاتبة لقصص لاهادفة وروايات عاطفية Romance تدور أحداث بعضها في الشرق، قصص غير واقعية وليست بنفس مستوى أو نضج القصص التي كانت تُنشَر في عصرها، (وليست بمستوى بحوثها فيما بعد)، فلقد نَشرت العديد من تلك القصص الفاشلة (ستة عشر كتاباً)، ويبدو أنها بعد ذلك قررت أن تجرب حظها في حقل آخر. وقد كَتَبَتْ بعضَ

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

القصص التي تدور أحداثها اللاواقعية (كما أسلفتُ) في الشرق وفي بغداد، أي على نمط أجاثا كرستي التي نشرت ثمانين رواية أو مجموعة قصص قصيرة وأصبحت ثرية جداً. عاشت دراور وكرستي في نفس العصر تقريباً، وربما أصبحتْ كرستي التي تصغر دراور بعشرة أعوام، تقلدها مستفيدة من أخطائها، فكتبت جريمة في قطار الأكسبريس، جريمة على النيل، جريمة في بغداد، جريمة..وسواها من الروايات اللاهادفة التي تفشت فيما بعد (القصص الغرامية والبوليسية، وما شابهها)، أي بعد أن ضرب الركود الاقتصادي، ١٩٢٩ أطنابه، حيث يبدو أن تلك القصص لم تدر على السيدة دراور أرباحاً كافية من نشرها، وقد حصل أن راجت سوق القصص بالطبع بعد أن تخلت السيدة دراور عن الرواية والقصة القصيرة متجهةً نحو جانْبَ مغاير. بعبارة أخرى: ان سوق الكتب التجارية والروايات ذات القيمة الفنية والانسانية الضئيلة أصبحت أكثر رواجاً بسبب نمو النزعة الانهزامية لدى القراء عموماً وذلك بعد سنوات من تحوّل دراور عن الرواية نحو دراسة الانسان وحياة الشعوب.

**المشكلة الثانية:** لم يكن دافع بقائها مدة طويلة في العراق بسبب البحث أو البحوث التي أنجزتها، لأنها كانت زوجة ضابط في جيش الاحتلال البريطاني في العراق. يقول غضبان الرومي (مذكرات مندائية ص ٦٢) أن السيدة دراور:"..هي زوجة المستشار القانوني لوزارة العدل وكانت يهودية الدين متزوجة من مسيحي.."وهذا ما ساعدها على المكوث فترة أطول من بقاء الكتّاب الأنثروبولوجيين الغربيين الآخرين في العراق مما منحها فرصة أكبر للاتصال برجال الدين المندائيين وكسب ودِّهم بشتى الطرق بهدف الحصول على المعلومات الثمينة عن الدين المندائي والتي كان رجال الدين المندائيون يتكتمون بشأنها أمام الباحثين الآخرين، ومن الطبيعي أن كونها امرأة أولاً وزوجة لمسؤول بريطاني، وفي العراق بالذات ثانياً، من أهم عوامل فوزها بثقة بعض رجال الدين.

**المشكلة الثالثة:** لم تكن السيدة دراور تبخل بالمال لشراء المعلومات والمخطوطات التي حصلت عليها من بعض رجال الدين ومن غير رجال الدين (من العامة) أو من "المتهيمنين" (أي المتدينين غير الكهان) الذين كانوا يكتبون المندائية ويتكلمونها بطلاقة ويحفظون القصص مثلما كانوا يمتلكون الكتب الدينية والتراثية النادرة، حيث لم يصعب عليها الحصول على نسخ من جميع الكتب الدينية والتراثية المندائية من هؤلاء المتهيمنين قبل رجال الدين لأن رجال الدين المندائيين يمتازون عن المتهيمنين عادةً بأنهم أبعد نظراً وأشد حذراً، وكمثال مهم على ما أقول هو أن "هرمز بن خضر" لم يكن

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

رجل دين بل "متهيمناً"، وأعتقد أن ما قيل عن مساعدة رجال الدين لها أمرٌ مبالغ به وبحاجة إلى إثبات، فحرص رجال الدين تقليدٌ متوارَث يعود إلى طبيعة الالتزام الديني ونوع المسؤولية الاجتماعية والقَسَم، فالقسم (العهد) يؤديه الآخرون أيضاً، لكن قسم رجال الدين أكبر وأكثر تعقيداً وتكراراً؛ لكن عموماً فإن ما زودها به "المتهيمنون" كان بحد ذاته كافياً لأن يمنح بحثَها نوعاً من الشمولية في ما يتعلق بالمندائية وبالمندائيين آنذاك. صارت لديها ثروة تراثية من المخطوطات الخاصة، سواءاً كانت هذه المخطوطات أصلية، أي قديمة ربما تم استنساخها قبل وصولها الى العراق بمدة ما، أو أنها استنسخت لها حسب رغبتها، حيث كان تعذر حصولها على الأصلية، خاصة التي منها بحوزة رجال الدين يرجع للقدسية الخاصة في نفوسهم لتلكم المخطوطات.

**المشكلة الرابعة:** يبدو لقارئ بحث دراور الذي لم يترك شاردة أو واردة في وصف كل ما يتعلق بالمندائيين وما يتعلق بالمجتمع المندائي والدين المندائي وطقوسه والوصف الدقيق جداً لرجال الدين وكل حركة من أبدانهم في حياتهم عموماً، وأثناء ادائهم لطقوسهم خصوصاً، ووصف الرجل المندائي والمرأة المندائية وعادات كل منهما بشكل مسهب – أقول يبدو للقارئ أن هذا البحث يستهدف دراستهم المفصلة، لكنه (اي القارئ) يجتاحه شعورٌ أن هذا البحث لا يختلف في أهدافه القريبة أو البعيدة عن الأهداف التي كتب عنها المثقفون والمفكرون والمؤرخون العراقيون وعن كونها كانت تكمن وراء نشاط المبشرين المسيحيين الأوربيين الأوائل؛ لذا فإن من الواقعي إعتبار بحثها قد تم إنجازه ليس بهدف تحسين ظروف حياة المندائيين أو لتطوير أساليب معيشتهم أو حمايتهم من الاضطهاد، فهي بحكم كونها زوجة ضابط احتلال لم تكن وظيفتها في العراق سوى مرافقة زوجها، والدليل هو نوع ومستوى مؤلفاتها السابقة لهذا البحث، فالباحثة لم تكن بالطبع تعارض احتلال العراق أو تفكر في الدعوة الى أي نوع من التحرر أو التحرير لأية فئة أو شريحة من المجتمع العراقي سواءاً كانت دينية أو غير دينية، لذا فإن مصير العراق أو مصير شعبه، بضمنهم المندائيون، لم يكن يهم السيدة دراور، بل لم تكن تجرؤ، في اعتقادي، على التفكير فيه ناهيكم عن مناقشة هذه الأمور على هذا المستوى مع زوجها أو غيره، ولا بد إذن من النظر بعين التدقيق إلى المهمة التي عَهَدَتْ بها الى نفسها أو، ربما، عُهِدتْ إليها في دراسة المجتمع المندائي باعتبارها جزءاً من مواصلة البحوث التي ساعدت وتساعد القوى السياسية والعسكرية البريطانية على إدامة احتلالها للعراق.

ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

من الطبيعي أن بحثها استخدمه ويستخدمه ضباط الهجرة البريطانيون المعنيون بشؤون المندائيين في مختلف الأوقات من عصرنا، خاصة بعد هجرة مندائيين عراقيين إلى المملكة المتحدة قبيل وأثناء العام ١٩٧٨ وما تلاه، ولا بد أنهم (أعني ضباط الهجرة البريطانيين، وبالتأكيد نظراءَهم في دول مماثلة) استخدموا بحث السيدة دراور لا لمساعدة المندائيين وإنما على العكس للتدقيق في شؤونهم وللبحث عن إمكانية رفض ما تقدموا به بسبب التعليمات التي كانت تردهم بصدد التشدد في قبول اللاجئين، مندائيين وغيرهم، عراقيين وغيرهم، بسبب الضائقة المالية الناجمة عن الأزمات الاقتصادية المتواصلة، وكذلك لأسباب أمنية وسياسية (سياسية بمعنى الأخذ بعين الاعتبار علاقات الحكومة البعثية مع الدولة المعنية، بريطانيا في مثالنا)، فبعض المندائيين من حديثي العهد بشؤون الهجرة آنذاك طلبوا اللجوء على أسس دينية فكان جواب ضباط الهجرة: "نحن نعرف أنكم غير مضطهدين دينياً فبيت 'القس□ المندائي ملاصق لسفارتنا في بغداد"،).

فمَن كان ينظر في طلب اللاجئ، إذن، هو ضابطٌ كان قد قرأ أهم بحث في حياة المندائيين آنذاك وهو بحث "الليدي" دراور كي يقرر مصير الطلب الذي قُدِّمَ على أسس دينية في ضوء ما قرأه في الليلة الماضية من كتاب دراور لكونه أحد أهم المصادر (ربما الوحيد لديه) بالإضافة طبعاً إلى الاعتبارات الأخرى المتعلقة بقضية اللاجئ.

من الطبيعي أن الهدف الأساسي وراء أي بحث يبدو واضحاً ليس فقط من طبيعة البحث نفسه، وإنما أيضاً من طبيعة استخدامه الذي يلي تأليفَه، أي عندما نسأل أنفسَنا أولاً لماذا تم تأليف ونشر هذا البحث؟ وثانياً عندما نسأل أنفسنا من الذي يستخدمه ولماذا؟ أوَ ليس هذا التساؤل مشروعاً؟

إن لم يكن مشروعاً فعلى أي أساس قد بُني مثل هذا البحث إذن عندما نرى بأم أعيننا كيف يُستخدم؟

**المشكلة الخامسة:** يروي المربّي الكاتب غضبان الرومي في كتابه "مذكرات مندائية" (دار المدى ٢٠٠٧) حادثة مهمة يُمكن استنتاج الشيء الكثير منها عن شخصية السيدة دراور، فقد قال إنه في عام ١٩٣٠ كان معترضاً على أحد مشاريع السيدة دراور بالنسبة للمندائيين (عريضة تأييد عصبة الأمم التي قدمتْها بنفسها لرؤساء المندائيين في اجتماع في قلعة صالح شمل ثلاثين منهم طالبة اليهم التوقيع عليها)، ويبدو أن اعتراض الرومي قد سبّب اعتراض رؤساء المندائيين على المشروع لأنهم حذوا حذوَه بعد

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

ان استشاروه، يقول الكاتب: "وعلى أثر ذلك طوت مسز دراور عريضتها وقالت الأمور مرهونة بكم فإذا كنتم لا توافقون على تقديمها فالأمر يعود لكم. وعلى إثر ذلك انفض الاجتماع وسافرت هي إلى العمارة وشكتني عند مدير معارف العمارة، وكان وقتئذ السيد خالد الهاشمي. عندما سافرتُ بعد فترة الى العمارة واتصلتُ بالسيد خالد لبعض الشؤون أخبرني أن مسز دراور شكت مني، فشرحتُ الأمر له وكيف أنها جاءت بعريضة شكوى ضد الحكومة العراقية تريد تقديمها إلى عصبة الأمم. فاستغرب كل الاستغراب من فحوى ادعائها السابق وما بينته أنا له."، لا يتوفر لدينا للأسف نص تلك العريضة، ولا نعرف بالضبط ما هي الوعود التي تحتويها، لكننا نعرف الكثير عن طبيعة الوعود البريطانية التي لم ينفذ منها سوى ما يهم المصالح الاستعمارية للدول الرأسمالية الغربية، نعرفها من خلال معرفتنا لتأريخ العراق وليس فقط من خلال الاعترافات والسير الذاتية كما نرى في كتابات الجاسوس لورنس عما وعد به عرب شبه الجزيرة وغيرهم من الذين جنّدهم إبان الحرب العالمية الأولى للمساهمة في تفكيك الامبراطوية العثمانية، ولورنس هذ هو "كاتب" أيضاً!

مرةً عندما طرحْتُ أمام مجموعة كبيرة نسبياً تلك القصة المهمة التي رواها غضبان الرومي علق أحدُ مندائيي المهجر قائلاً ما معناه أنه كان يُفترَض بشيوخ المندائيين المجتمعين في قلعة صالح ذلك العام أن يوقعوا على عريضة السيدة دراور الموجهة إلى عصبة الأمم! هنا ينبغي أن نفهم جيداً لماذا كانت دراور راغبة بجمع تواقيع المندائيين تأييداً لعصبة الأمم علماً أنها قالت للرومي أن ذلك سيساعد على الاعتراف بالمندائيين وبحقوقهم! ذلك التعليق ليس فقط قاصراً عن فهم نوايا وأهداف واساليب "عصبة الأمم" إنما هو أيضاً قاصرٌ هذه الأيام عن فهم أهداف ونوايا وأساليب "الأمم المتحدة" التي هي في الواقع أداةٌ وامتدادٌ أكبر لمنظمة وأداة أخرى سبقتها، وهي عصبة الأمم التي كانت هي الأخرى تفرض الحصارات الاقتصادية والعسكرية وتسبب انهيار أمم صغيرة وكبيرة على حد سواء لما فيه صالح الأنظمة الغربية.

**المشكلة السادسة**: الاستثمار :هناك ملاحظتان يجب تقديمهما :

الأولى، الاستثمار هنا بمعنى أن يترك الشخص المتنفذ أو المؤسسة المتنفذة أو الجيش المحتل مشكلةً ما في المكان الذي ستتم مغادرتُه، أعني مشكلة يصنعها الجيش أو المؤسسة بالاعتماد على فرضيات أو إحتمالات أنْ تساعدَهم هذه المشكلة في

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

العودة إلى ذلك المكان في زمن ما في المستقبل! وهذا يشبه الى حدٍ ما توظيف رؤوس الأموال أو ما يشبهها في مشروع ما وذلك من أجل "التنمية" وتحقيق أرباح في المستقبل!

الملاحظة الثانية في الاستثمار - يتحول العلم الى "علم مزيف" بشكل خطير عند ممارسة هذا النوع من الاستثمار من قبل "المفكرين"، من مأجوري النظام الذي يوظف، في هذا الاستثمار، من "العلماء" (أو أشباههم).

وفي ما يتعلق بالسيدة دراور فإنه سيكون أسهل على باحثي ومختصي المستقبل من المندائيين أو غيرهم التوغل في دراسة كونها سودو -أنثروبولوجست من نوع ما، فأنا أكتفي بالاشارة إلى بعض (بالتأكيد ليس كل) مشاكل بحثها فتكون المشكلة السادسة:

يحتار القارئ المتفحص في تفسير بعض ما تطرحه السيدة دراور في كتابها، فهي ربما اعتمدت على ما قاله رجل واحد (وهو لا يمكن، في هذه الحالة، أن يكون رجل دين لأن رجال الدين المندائيين كثيراً ما يعتمدون على النصوص الدينية)، كما أن الكاتبة ربما اعتمدت على ممارسةٍ لعائلة واحدة (أو عائلتين كحد أقصى، في رأيي) لكي تستنتج وتعتبر بعض الطقوس عامة لدى كل المندائيين.

مثال: ومن الكتاب الأساسي، آنف الذكر، للسيدة دراور، سوف أناقش جملتين مترجمتين تمثلان جزءاً واحداً أو جانباً واحداً من طبيعة ما أصفه كمشكلة سادسة وأسميه بـ"الاستثمار" النص :أخبرني المندائيون بأنهم يتقيدون باعتبار عرفات لدى المسلمين صياماً، لكن هذا لم تفرضه كتبهم المقدسة. كل الأعياد الإسلامية "مبطّلات" لدى المندائيين."

ينبغي أن أؤكد أن هذه "العادات" الملفقة التي تتحدث عنها السيدة دراور لا وجود لها في سلوك المندائيين: لا الآن ولا في الماضي! لا في الطقوس ولا في سلوك رجال الدين ولا في سلوك عموم المندائيين. ينبغي أن أؤكد لمن لا يعرفني بأني بنيتُ هذا الرأي على ملاحظاتي الشخصية الدقيقة لسلوك المندائيين خلال أكثر من نصف قرن. فعلى ملاحظة سلوك مَن وعلامَ اعتمدت السيدة دراور في هذا التعميم؟

الجملتان تجسدان مشكلة واحدة تبدو صغيرة لأول وهلة ثم لا تلبث أن تصبح مضاعفة فيبدو الافتعالُ فيهما أكثر من واضح.كيف؟

١ - ليس هناك نص في الكتب الدينية المندائية بهذه التعاليم، بالطبع، فالسيدة دراور أعلم من غيرها بما تحتويه هذه الكتب، فهي تقول هذا بوضوح: but it is not

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

(لكن هذا لم تأمر به كتبُهُم المقدسة) prescribed by their holy books
عبارة "لكن" هذه استدراكٌ هدفه إقناع القارئ بما ورد في الجزء الأول من هذه الجملة المعقدة -المركبة. هذا ما لم توفق الباحثة فيه وهو ما يُشكّل دحضاً قوياً لادعائها وكشفاً لتناقضها.

٢ - من العبث أن نسأل مَن الذي أخبر السيدة دراور أن يومَ عرفات لدى المندائيين يومُ صيام!

لكن يمكن الحكم فوراً على عبارة "أخبرني المندائيون" باعتبارها غامضة، ويحق لنا اعتبارها مضلِّلة لأنها تفتقد للدقة العلمية، حيث تتجاوز هذه الكلمة كثيراً من الخطوات العلمية ومفردات اللغة العلمية في عبورها المباشر، السريع، إلى استنتاج عام، لكن استنتاج السيدة دراور هذا مبْتسَر، غير مبرر على الاطلاق، دون تقديم الأدلة الكافية، بعبارة أخرى فإنه إستنتاجٌ قد يحمل كثيراً من احتمالات العمل على إلحاق الضرر بهذه المجموعة البشرية الضعيفة، المهدّدة، سريعة العطب. إن عبارة "اخبرني المندائيون" أو "أخبرني مندائيون" (سواءاً تُرجِمت مع "الـ"التعريف أو بدونها) لا تدل على الاعتماد على التساؤل والتقصي والاستنتاج العلمي أو التجربة وتحليل النتائج أو الاحصاء، فمن هم "المندائيون" الذين "أخبروها" بذلك؟ ما عددهم؟ ما نسبتهم للمجموع؟ في أي مكان وزمان أخبروها؟ لماذا يعتبرون ذلك اليوم صياماً؟ ما تفسيرهم لذلك وما تفسير الكاتبة؟ وأخيراً وليس آخراً: لماذا تؤكد الكاتبة على هذا؟

إن عبارة : Mandaeans have told me عبارةٌ صحفية وليست علمية، وكأن الكاتبة تقول لقرائها:

- "هم الذين أخبروني بذلك وأنا لستُ مسؤولة عن هذا الموضوع، ولستُ أنا الذي أقوله، لذا أرجو ألا يلومني أحدٌ على هذا!" حتى الصحفيون لا يقولون عبارات لامسؤولة مثل "أخبرني الناس"! أو "قال لي مَن حولي"، بل هم يُظهِرون مَن هم حولهم، مع التصوير أو التزوير، أو تاركين التزوير لنا كي نميزه (أو، ربما، لا نميزه!) فكيف بالعلماء؟ إنها عبارة صحفية رديئة جداً، فالعلماء لا يستعملون عباراتٍ كهذه طبعاً ولا يعتمدون عليها، بل يميلون كثيراً إلى إهمالها.

٣ - لا تكتفي السيدة دراور بهذا الادعاء وإنما تضاعف المشكلة بالتصعيد وبالمزيد من التعميم، فإن الادّعاء بأن "كل" الأعياد الاسلامية هي مبطّلات (أيام لا تُجرى فيها طقوس) لدى المندائيين هو إدّعاءٌ مبالغ به إلى درجة الكذب، لأن

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

كلمة "كل" ليست فقط غير واقعية بل أيضاً غير مسنَدة بالأدلة.حسناً! إنه "تعميم" ليس له ما يبرره إذن! بل أستطيع القول بثقة بأن هذه المحاولة من السيدة دراور، من وجهات نظر المندائيين الحريصين على سمعة مجموعتهم وسلامتها، تعميمٌ مشؤوم، بل مغرض، ولأن أي كاتب من هذا النوع وهذا المستوى، خاصة من الكتّاب الغربيين، بضمنهم كتّاب الإنجليزية التي تُعتبر اللغة الثانية لكثير من المهاجرين، لا بدّ أن يميز بين المفردات التالية:

All – Majority - Most – A lot – Some – Few – A small number – Only one family – Only one person – None

هذه العبارات والمفردات التي يمكن أن تعطي فكرة سريعة وربما تدل بشكل ما على خلاصات نتائج دراسات لعيّنات معينة تحمل نِسباً واضحة، قد كان بامكان السيدة دراور أن تختار منها بشكل أفضل بدل هذا الاخفاق الذريع، الواضح، فما مدى الدقة التي تحملها خلاصة السيدة دراور في جملتيها أعلاه؟ إذا كان الأمر عديم الأهمية تاريخياً أو دينياً أو إذا كان ما أشارت اليه في الواقع لا يمارَس طقسياً، أو ربما كان منعدماً كلياً في سلوك المندائيين (كما في هذا المثال)، أو لنفرض جدلاً أنه ربما مارسه شخصٌ أو مارسته عائلة أو عائلتان، فلماذا الاهتمام به؟ لماذا طرح هذا الموضوع أصلاً؟ والأهم: لماذا هذا التعميم ؟ فلماذا استعمال كلمة All؟ عندما يستعمل العالم الجيد كلمة "كل" فمعنى هذا أنه قد اعتمد على نماذج وإحصائيات وأدلة ...إلخ، وأن هذا أمرٌ عام ومفروغ منه ولا يحتاج إلى مزيد من التساؤل والتجريب! All "كل" لا تدع مجالاً للاستثناء، لأنها تتغير في حالة الاستثناء الى Most "معظم"، أو إلى majority"أغلبية" (وفي تفسير الأغلبية درجاتٌ أيضاً)، وهناك ما يمكن أن يعبّر عن الدقة بدرجات كما في الفرق بين المقارنة والمفاضلة ويُضاف الى هذا طبعاً مما ذكرتُ أعلاه ومما كان بإمكان السيدة دراور استعماله. لا هذه المفردات ولا ما يخالفها أو يشابهها في السلّم صعوداً أو نزولاً ("قليل"، "نادر"..إلخ) يمكن للباحث العلمي استعمالها اعتباطاً أو ابتساراً، فكيف بـ"كل" التي هي في أعلى السلّم؟لذا أستطيع التشكيك بكل قوة، في هذه النقطة بالذات، بنوايا هذه الكاتبة التابعة للنظام الكولونيالي البريطاني القديم!

فاذا علمنا أن ظروف الحساسية الدينية لم تكن تشير الى أي نوع من التحسن في ظروف المندائيين، ولا غيرهم في الواقع، طبعا، إذ ْلم يكن العراق (أثناء كتابتها لبحثها) ذا نظام ديمقراطي، إنما كان التطور فيه على الصعيد الاجتماعي

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

والاقتصادي والسياسي والفكري بطيئاً جداً، وذلك بسبب احتلال الامبراطورية البريطانية (١٩١٧) الذي جاء بعد قرون عديدة من هيمنة الامبراطورية العثمانية ؛ لا لكي "يحرر" البلاد كما ادّعى الجنرال مود، بل ليستبدل احتلالاً امبراطورياً شرقياً[١٠١] قديماً باحتلال امبراطوري غربي جديد، فلماذا تعتقد السيدة دراور بأهمية هذه المسألة، وفي ذلك الوقت؟ إذن يحق لنا أن نقول أن السيدة دراور قد حذت حذو أركان أو أعضاء أو خدم الطبقات الحاكمة البريطانية في تطبيق طريقةٍ في الاستثمار، في المشاكل التي دأبوا على تركها عند مغادرتهم الصورية للمناطق التي يحتلونها عسكرياً.

السؤال : ما الذي جعل السيدة دراور تقول عن المندائيين: "الخطر على القطيع يأتي من بينه وليس من الذئاب حوله"؟ فهذا كلام ليس فقط لامعقولاً، وليس فقط مشكليّاً. إنه خلافي جداً، مثيرٌ للجدل، مثلما هو مشكلي بالمعنى الثاني أعني أنه مسبب لإثارة المشاكل بين مجموعات أو أفراد المندائيين، أي ضمن مجتمعهم. فهناك من المندائيين من أنصاف المثقفين منهم خاصة مَن يتحدث عن السيدة دراور كما لو كانت شخصاً مقدساً، أو كما لو كانت امرأة مندائية مؤمنة بالدين المندائي! "إمرأة دين"! ألم تتعلم اللغة المندائية وتتكلمها بطلاقة؟ ألم تكن ترتدي الملابس البيضاء في لقاءاتها بالمندائيين؟ ألم تكتب عن المندائيين والدين المندائي؟ ألم تكن لها علاقات طيبة برجال الدين؟ وأخيراً وليس آخراً ألم تشخّص "مكمن الخطر" على المندائيين؟!

ولكن هؤلاء الذين يستشهدون بعبارتها الأثيرة لديهم لا يقولون لنا بالضبط ما تعنيه دراور! كما أنهم عند اقتباسهم المتكرر للعبارة، بمناسبة أو بدونها، لا يقولون لنا ماذا يعنون ومَن يعنون!

بل ان رجل دين متطرف، طموح، أناني، وسليط اللسان، كثير التذمر، كتب مرة إلى أحدهم ما يلي:

"أنا معك أخي ... في ان يكون هناك قرارًا يتبناه فضيلة رئيس الطائفة لرفع كل ما يسيء للدين المندائي خاصة اذا جاء ذلك من أبناء ذلك الدين"!

وأردف: "إن الخطر على القطيع يكمن فيه لا في الذئاب من حوله"!

فما الذي جعل دراور تقول هذا الكلام؟ فمن السذاجة أن يزكّي أحدٌ بحثاً ما كُتِب أصلاً إلا لغرض ماليّ، مثلما يكون من السذاجة تخيل أن السيدة دراور كانت حريصة على مصير المندائيين والدين المندائي، فحديثها عن الحضارة و"السدارة" يشبه

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

كثيراً أحاديث الإعلام الرأسمالي على مصير أجناس من الأحياء التي تختفي تدريجياً من على سطح كوكب الأرض بسبب التلويث الرأسمالي للبيئة، ويشبه كثيراً جداً الحب الكاذب الذي يبديه الإعلام الرأسمالي للأطفال وللحيوانات في الوقت الذي تقوم فيه الأجهزة العسكرية الرأسمالية بقتل أو تجويع الأطفال والشعوب في أصقاع مختلفة من كوكب الأرض. فلو سلّمنا جدلا بأن الخطر يأتي من "القطيع" (بشرط عدم وجود ذئاب حوله) فإنه بلا شك سيأتي من الأكباش التي "تقود" القطيع نحو المجهول. وفي هذه الحال تكون مقولة السيدة دراور أكثر دقة في انطباقها على كبار رجال الأعمال وعملائهم من بعض كبار رجال الدين. ترتكب السيدة دراور، إذن، خطأين كبيرين في ترديد هذه المقولة: الأول "أدبي"، إن صح الوصف، بنعت المجموعة بالـ"قطيع". ؟فربما كان ما تقوله دراور عادياً باعتبار الكاتبة جزءاً من نظام "مسيحي" أو "يهودي" حيث تتردد كثيراً هذه المفردة (أعني "قطيع") في أدبيات المسيحية واليهودية: أنا راعيكم، وأنتم قطيعي. أنتم غنم! لأنها تقولها بجد وليس بلغة أو أسلوب النقد الساخر. الخطأ الثاني فكري أو فلسفي إن صح التعبير، أي أن هناك أمراً غير معقول في اعتبار أن الخطر على قطيع الخراف لا يأتي من الذئاب بل من الخراف نفسها! فكيف يمكن اعتبار هذا الهراء كلاماً يصلح للبشر الناضجين عقلياً وفي هذا العصر؟فما الذي كتبته السيدة دراور على وجه الدقة لتنتهي بهذا التحذير الكاذب عن مصير المندائيين: " الخطر على القطيع يأتي منه وليس من الذئاب حوله"!ما الذي كتبته عن أبناء رجال الدين؟ وهل ان موقفها طبيعيّ ٌ، دقيقٌ، وواضح فيما يتعلق باضطهاد النظام الكولونيالي البرتغالي للمندائيين العراقيين؟ وهل ان حديثها عن رجال الدين المندائيين في مقدمة البحث كان سليماً؟

**المشكلة السابعة:** ما يتعلق، في رأي السيدة دراور، بدَوْر الحضارة على أولاد رجال الدين بشكل خاص، وشؤون أخرى، حيث لا ندري كيف يمكن، من خليط متناقض من الآراء، استنتاجُ أن الخطر على المندائيين يأتي من المندائيين؟ ما يجعل هذا موضوعًا شائكاً أسبابٌ كثيرة يتصدرها التساؤل لماذا تربط السيدة دراور مصير المندائيين بأولاد رجال الدين، لأننا نرى الآن بأن معظم مَن يُكرّسون أو "يُطرَسون" كرجال دين جدد ليسوا من سلالات رجال الدين الاثني عشر الذين وصفتهم السيدة دراور لنا بإسهاب "علمي" متحدثة ًعن أطوالهم أو أشكال أنوفهم في محاولة منها بالايحاء للقارئ باحتمال أن تكون أصولهم يهودية!

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

إن تحليل السيدة دراور لمستقبل الدين المندائي يخلط (دون تجانس) بين سلوك بعض أبناء رجال الدين وارتدائهم "السدارة" وقص شعر رؤوسهم وغير ذلك باعتباره تهديداً للدين، وفي جملةٍ في نفس الفقرة عن زواج مندائيات من غير مندائيين (وهو أمرٌ نادر جداً، إنْ لم يكن معدوماً، وقت كتابتها لتحليلها)، وفي الجملة التي تليها مباشرة تتحدث عن كون إجراء الطقوس على ضفاف الأنهار في المدن "مستحيلاً" (وقد ثبت خطؤها طبعاً) موحية بأن من "المستحيل"، أيضاً، طبعاً، أو على الأقل من المستبعَد جداً أن يقوم المندائيون بتحدي هذه المصاعب أو أن يلجأوا الى أسلوب حضاري في التعميد في مياه نظيفة داخل أحواض حديثة تُبنى خصيصاً لهذا الهدف! في الجملة التي تليها مباشرة تقفز السيدة دراور الى إحصاء عام ١٩٣٢ في العراق حين كانت نفوس المندائيين ٤,٨٠٥ فقط؛ وتقول أن هذا رقم مخفّض عمداً .

تضيف السيدة دراور أن نتيجة إحصاء المندائيين تلك ستراجَع بهدف تصحيح عدد نفوسهم على ضوء الإحصاء الذي أنجزته الحكومة العراقية مؤخراً (إحصاء ١٩٤٧؟).

وتضيف: "تحت الانتداب، نعمت مجتمعاتٌ كالتي في العمارة وقلعة صالح برخاء جديد، والعراق المستقل يعد بالحماية والتسامح. إن الخطر على القطيع يكمن في الداخل (داخله؟) وليس من الذئاب خارجه."من هذه الفقرة الختامية للسيدة دراور، التي تحاول فيها أن تواصل مناقشة عوامل الخطر باختصار واضح، تبرز أسئلة كثيرة لتطرح نفسَها أمامنا:

١ - يؤكد هذا الرأيُ السياسي الخطير للسيدة دراور شكوكي حول مواقف الباحثة ويوضح لنا أين تقف هذه "الباحثة" بالضبط من مسألة الاحتلال البريطاني للعراق، فكيف يمكن لمجتمعٍ في بلد محتل أن "يتقبل" أو "يضطلع بـ" أو "ينعم بـ" – "رخاء جديد"؟ وكيف كان من الممكن اعتبار العراق مستقلاً "تحت الانتداب"؟ وكيف يمكن لبلدٍ تحت الانتداب الأجنبي أن يؤمّن الحماية والتسامح، ناهيك عن "الرخاء"؟

٢ - أليس من المشروع أن تمتد شكوك القارئ لتشمل الغرض من البحث آخذين بعين الاعتبار، كما أشرتُ، الى طبيعة وجود السيدة دراور في العراق؟ وعلى هذا الأساس فمن الممكن، بل من المشروع تطوير هذا السؤال كالآتي: بماذا يختلف بحث دراور هذا (وحتى بحوثها الأخرى) عن نتاج "الباحث" البريطاني (مقلد لورنس) ولفْرِدْ ثِسِجَرْ في أهوار وجنوب العراق والذي هرب من أهوار العمارة في

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

الرابع عشر أو الخامس عشر من تموز ١٩٥٨ في هليكوبتر نقلته من منطقة تابعة لاقطاعي من أصدقائه من أقطاب النظام الملكي العراقي حين نقلته الى ايران؟

٣ - خلاصة دراور (الخطر على القطيع يكمن في داخله وليس من الذئاب خارجه) يُجبرنا على التمعن في بضع كلمات فيه:

Flock – قطيع؛ fold – قطيع، لكنها تعني أيضاً "حظيرة الخراف"، أوَ ليس هذا مربكاً؟ فما هدف دراور إذن على وجه الدقة وماذا تريد أن تقول باستعمالها كلمة fold؟ أتعني بها "العراق" مثلاً، المجتمعات العراقية الأخرى، أم أن الخطر على المندائيين يأتي من المندائيين أنفسهم؟ وهل أن المسؤول هم رجال الدين وأولادهم مثلاً؟ وكيف يمكن إلقاء اللوم على رجال الدين فقط؟ وكيف يمكن التوفيق بين الاقتناع بضرورة الحضارة، أو، على الأقل، المظاهر الحضارية الآنية (في موضوعنا، وآنذاك، قص شعر الرأس، حلاقة الذقن، لبس السدارة، وغيرها) وبين الدعوة إلى الحفاظ على كوميُنتي معينة، دينية، والتي تماثل، الى حد كبير، الدعوة الى الحفاظ على جنس من الكائنات النادرة المهددة بالانقراض؟ وكيف يمكن هذا الحفاظ (أو كيف يمكن الإقناع به) عندما يكون من يدعو الى ذلك مؤيداً لاحتلال ٍلم يجيء بهدف التحرير (التحرير من الاحتلال العثماني في موضوعنا) – مؤيداً له وركناً منه وجزءاً من نظامه الفكري وتواجده البدني (العسكري)؟ (كان زوج دراور ضابطاً ومستشاراً بريطانياً) – لا بُدّ أن يكون المرء والحالة هذه جريئاً بما فيه الكفاية، أو مهمِلاً بما فيه الكفاية، أو، ربما، صلفاً بما فوق الكفاية! ولهذا فإن قليلي الذكاء من بعض مندائيي المهجر، ما فتئوا يرددون عبارة دراور عن الخطر الذي يأتي من نفس القطيع وليس من الذئاب حول القطيع، وذلك للتنديد بالكتاب والمثقفين الذين أثبتوا صموداً إزاء مجموعة من الانتهازيين) [١٠١].

**التعليق الثاني: ما يتعلق بما كتبته وترجمته دراور عن الصابئة:**

(إن الترجمة من لغة قديمة وفك رموزها أمر صعب للغاية، لأن أغلب هذه النصوص محاط بغموض طقسي خاص، كما هو الحال مع كافة النصوص الغنوصية. بالإضافة إلى القواعد اللغوية التي تتباين وفقا لزمان الحدث. وأقصد تصاريف الأفعال خصوصاً أن المفاهيم اللغوية الموجودة في تلك النصوص قد مضى عليها زمن طويل وليس من اليسر التوصل إلى تفاسير لها ونحن بعقلية القرن الحادي والعشرين. إن المترجم يضيع أحيانا في متاهة صيغ الأفعال والإعادات المتكررة للجملة الواحدة مع تغير مواقع

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

الكلمات مثال على ذلك: "عند بوابة منزل أبدوني / وضع عرش للجني / للجني وضع عرش / تعالوا في الإناء أسقطوا / تعالوا كونوا على بينة من أنفسكم / على هذا ما كنتم أنتم قد اقترفتم في العالم ." ومن الأسباب الأخرى لصعوبة ترجمة النص يكمن في أن اللغة المندائية مدونة بشكل نص متصل غير منفصل بنقاط أو علامات تشير إلى بداية ونهاية الجملة، ناهيك عن الأخطاء الإملائية والنحوية التي وقع بها النساخ.

ومن العوائق المهمة التي تجابه المترجم أيضا أن الكثير من هذه النصوص مكتوب بطريقة مشوبة بالغموض الخاص باللاهوت الخلاصي للنفس (النشمتا) soterioligy بحيث لا تتيح لمن هو غير مخول بفهمها.

كما أن العديد من الطقوس يتم تناقلها شفاها من جيل الى جيل بين رجال الدين وهذا يشكل عائقا آخر نحو فهم هذه النصوص .

في الحقيقة أن إهمال النساخ وأخطاءهم النحوية تضيف كثيراً إلى الصعوبات التي تلاقي المترجم وهنا تبرز الحاجة إلى لجنة من الأكاديميين ورجال الدين المندائيين كي تقوم بتحقيق هذه النصوص وطبعها بصيغها الصحيحة بعد أن تتم مراجعة ومطابقة النص مع مصادر أخرى لنفس النص إن توفرت. إن الترجمة من المندائية القديمة تستدعي استثمار الدراسات الحديثة في الترجمة والاستفادة من التراث المندائي في نقل المعلومة، وأن يكون المترجم على وعي تام بما سيتلقاه القارئ المندائي وغير المندائي؛ لأن الخطأ في نقل المفاهيم والمصطلحات قد يؤدي إلى تشويه النص نتيجة لتباين المعاني تبعا لمفهوم النص وزمانه، خاصة أن المخطوطات المندائية تعود إلى حوالي ألفي سنة. وعلى العموم تبقى ترجمة هذه المخطوطات والدواوين مغامرة على من ينوي خوضها أن يكون ملما باللغات ذات العلاقة كالعربية والآرامية والعبرية والآكدية لوجود مفردات وقواعد نحوية مشتركة بين هذه اللغات، كما ينبغي عليه أن يكون ملماً بتاريخ وادي الرافدين ومنطقة الهلال الخصيب والموروث الحضاري والأسطوري لهذه المنطقة امتدادا من حران شمالا وحتى القرنة جنوبا حتى لا ينساق وراء الدلالة العربية لكلمة أسطورة على أنها خرافة بما تحويه من مدلولات سلبية على الترجمة في الفكر العربي. وكل هذا يتطلب، كما هو واضح، لجنة من المختصين بهذه المجالات يعهد إليها بترجمة الكتب المندائية)[١٠٢]

يعترف الصابئة المندائيون بصعوبة لغتهم وسرية ديانتهم فيقول أحد أتباعهم ( إن ما وصلنا من نصوص لم يسلم بالمرة من العيوب، فقد شاب عملية النقل هذه كثير من

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X

القصور في القرون المتأخرة بفعل الجهل الذي ساد الطائفة وقصورها عن فهم دلالة هذه النصوص، لقد باتت النصوص تستظهر من جانب رجال الدين ومن يجيد اللغة المندائية منهم دون إدراك لما تعنيه أو ما تدل عليه هذه النصوص، وزاد الأمر سوءا أن معظم أفراد الطائفة باتوا يجهلون لغتهم وأبجديتها ويكتفون في الطقوس الدينية بترديد ما يقوله رجل الدين، وإن رجال الدين ذاتهم باتوا لايفقهون دلالة ما تنطوي عليه النصوص التي يقرأونها أو يستظهرونها أمام العامة، ولا يدركون أبعد من ترجمتها الحرفية إلى العربية . في وضع كهذا أصبح من المألوف أن تعترض الباحث نصوص غير مكتملة أو مشوشة أو تعوزها الدقة في نقل الأسماء والأحداث والأرقام ناهيك عن التباينات في صياغة الكلمات وإملائها والأمثلة في هذا التشويش كثيرة . إن اللغة المندائية .... أصبحت مع التدهور الفكري والحضاري في حالة مائعة حتى غدت الكلمات تتخذ أشكالا غير متوقعة كما يقول ماكوخ ودراور في مقدمة القاموس الذي أعداه للغة المندائية)[١٠٣].

يظل السؤال الذي يجب أن يطرح نفسه على القارئ لمن كتب عن المستشرقة دراور ودورها في الديانة الصابئية : لماذا لم يفطن أو يكشف أحد سوى هذا المؤلف غضبان الرومي علاقتها بالمخابرات البريطانية، خاصة مترجمي كتبها من الصابئة أنفسهم، ولماذا لم يكشفوا لنا ذلك سواه وأفرده بالذكر في مذكراته؟ وهل هذا هو سبب رفض رجال دينهم اعتناقها له رغم أنهم مثلها في المعتقد، فهي يهودية وكلاهما يرف التبشير والدعوة لدينه وخاصة ما نلاحظه من ثناء الصابئة عليها، هل خفي أمر اجتماعها عن بقية الطائفة هل آثروا إخاء الخبر، ولماذا كالوا لها المديح هل هو من باب الوفاء والاعتراف بالفضل ولو للعدو؟ أسئلة كثيرة توصلنا في النهاية أن سراديب السياسة، إنها رأت أن الطائفة لن تستمر طويلا بسبب حصرها الرئاسة الدينية في عوائل بعينها وكأنها بذلك قد لفتت نظرهم إلى وجوب تغيير هذا المعتقد لتبقى الطائفة، فهل حقا هي من لفتت نظرهم أم أنهم بأنفسهم وصلوا لتلك النتيجة ؟ الحقيقة أن دراور لم تحب الصابئة المندائيين يوما وكما صرح أحدهم بأنها أرادتهم جسرا للتجسس على حكام العراق آنذاك، فلعلها أرادت فت عضدهم . ربما.يقول أحد الصابئة:( الباحثة والمستشرقة الإنكليزية المشهورة في الشأن المندائي (الليدي دراور) في كتابها (المندائيين في العراق وايران) بأن الطائفة سوف لا تستمر إلى فترة أطول لأن رجال دينها الموجودين في تلك الفترة كبار في السن، وأن حتى ذريتهم ترفض أن

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

يكونوا رجال دين ..أعتقد لو أن الباحثة أعلاه لا زالت على قيد الحياة وموجودة في ما بيننا الآن لكانت قد غيرت رأيها وهي تتجول فيما بين طائفتنا الآن!!.) [١٠٤]

وأما تعليقي :

١) أن دراور اعتمدت على المعايشة للصابئة المندائيين في مناطق تواجدهم في العراق وإيران وقتا لا يستهان به وهو ٤٠ عاما تقريبا ( ١٤+ ٢٥= ٣٩ ) عاما، بل تعلمت لغتهم واعتقدت أنها وصلت لبواطن دينهم لكن حقيقة ما يعترف به الصابئة عن غنوصية دينهم وباطنيته وإخفاء حقيقته حتى عن أتباع دينهم يجعلنا نتردد في تصديق أنها وصلت لكل ما لدى الصابئة كما تزعم وهي في الحقيقة وصلت لظواهر دينهم وهو متاح للجميع.

٢) كما ذكرت في المبحث الخاص بسمات منهجها أنها أكدت تناقض ونقص كتبهم المقدسة وطقوسهم فنتساءل :هل وصلت للحقيقة؟!

٣) نجد التباين في مواقف الصابئة منها بين مبالغ في تعظيمها وبين كاشف لحقيقة أهدافها مما يعني أن الصابئة أنفسهم مترددين مع أن حقيقتها ظاهرة للعيان فلماذا؟!

٤) درواز تذكر في كتابتها عنهم أنها قد تعتمد على رواية صابئي واحد فقط أو مشاهدة في الظلامأو تحت ضوء الشموع وهذا كله ضعف في النقل .

٥) دراور يهودية وتعلم حقيقة موقف الصابئة المندائيين من اليهود وأنهم يرونهم أعداءا لهم وسبب لهجرتهم من فلسطين موطنهم الأول وأنهم حرفوا الدين الصحيح لليهودية – كما يعتقدون – فكيف وثقوا فيها وسمحوا لها أن تعاشرهم في طقوس كثيرة ؟

٦) لماذا دراور رفضت الدخول في البهائية رغم عرض عباس عبد البهاء ذلك عليها ورغبت في دخول دين الصابئة المندائيين ورفضهم لذلك؟ ربما لأن الصابئة المندائيين دينهم مغلق كاليهود ولا يريدون من غيرهم الدخول معهم.

إن دراور اعترفت بصعوبة فهم اللغة المندائية، كما أن المندائيين لا يملكون القدرة على شرح صحيح للفقرات الغامضة في كتبهم . إذن كيف ترجمت كتبهم، فترجمتها لا يوثق فيها وصمت المندائيين على ذلك يؤكد على أنهم يرحبون بما حدث لتظل سرية وباطنية دينهم خاصة وأن دراور يهودية متزوجة من نصراني وهم يبغضون كلا الطائفتين ويرون موسى وعيسى – عليهما السلام – خارجون عن دين يحيى عليه

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

السلام ومبدلون له بل هم يحزنون في ذكرى غرق فرعون. وقد تعلمت اللغة المندائية على أيدي رؤوس الصابئة الغنوصيين فكيف نثق في أنهم أعطوها كامل الحقيقة وهم يقولون عن أعمال كل المستشرقين: ( الذين اهتموا بدراسة لغة الصابئة وتدارس كتبهم وأدبياتهم لإعطاء صورة أقرب إلى الحقيقة )[١٠٥] .

ولكن الأمر الذي لا مرية فيه أنها بذلت ما لديها للوصول إلى أهدافها وكشف الكثير من طقوس وعبادات هذه الطائفة التي كانت تعيش بجوار المياه المتحركة بهدوء ورافضة لأي أحد اعتناق دينها .

قرب، بعيدا عن الموانع والنواهي والمحرمات.

**الخاتمة**

الحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات .الحمدلله الذي وفقني ويسر لي الانتهاء من هذا البحث عن مستشرقة قل الحديث عنها والكتابة عن آثارها على ديانة الصابئة المندائيين المعاصرين.

إن المستشرقة دراور تعتبر علامة بارزة في تاريخ الصابئة المندائيين المعاصرين ورغم ذلك لم أجد كتابا باللغة العربية عنها .وما سطرته في هذا البحث لا أدعي له الوفاء بكل الجوانب بل هو جهد يفتح آفاق الباحثين .

<u>وأهم نتائج البحث:</u>

١ - مفهوم الصابئة تعددت حوله الأقوال.
٢ - الاستشراق هو جهود الغرب للسيطرة على بلاد المسلمين فهو صنو الحرب العسكرية بالتمهيد لها أو بتثبيتها بعد خروج أسلحته الثقيلة.
٣ - المستشرقة دراور هي نموذج متكرر من نماذج التجسس العسكري ضد بلاد المسلمين في صورة البحث التاريخي الأثري.
٤ - سمات كتابة دراور عن الصابئة المندائيين جمعت البحث مع عدم الدقة أحيانا لصعوبة الوصول لحقيقة دين غنوصي باطني .
٥ - الصابئة المندائيون كشفوا حقيقة دور المستشرقة دراور مع ثناء بعضهم عليها.

<u>أهم التوصيات:</u>

١ - نأمل من جامعاتنا إثراء المكتبات بالمصادر والمراجع الخاصة بالصابئة فهي شبه نادرة في المكتبات.
٢ - المرجو من أقسام العقيدة الاهتمام بدراسة الاستشراق وآثار المستشرقين.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

٣ - التواصل مع جامعة أكسفورد خاصة لجمع إصدارات المستشرقة دراور وتيسير الوصل إليها للباحثين .

**وأخيرا أدعو الله تعالى أن يكون بحثي خالصا لله تعالى ليس لأحد فيه شيئا وأن يكون في ميزان حسناتي. اللهم آمين.**

## المراجع

**أ. الكتب :**


١) ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه وقد وصف ابن تيمية وهب بن منبه الصنعاني التابعي _ رحمهم الله جميعا – بأنه من أعلم الناس بأخبار الأمم المتقدمة. انظر الرد على المنطقيين. ج/٢. تحقيق: د. رفيق العجم. بيروت. دار المصدر اللبناني. الطبعة الأولى. ١٩٩٣ .

٢) شيخ الإسلام ابن تيمية. بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية. تصحيح وتعليق . محمد عبد الرحمن قاسم. مكة. مطبعة الحكومة. الطبعة الأولى . ١٣٩١

٣) شيخ الإسلام ابن تيمية .المرجع السابق . بتصرف. وانظر هذه الأقوال المختلفة في كتب التفسير التالية : ابن الجوزي . تفسير زاد المسير في علم التفسير. ج/١ . بيروت. المكتب الإسلامي. الطبعة الخامسة. ١٤٠٧– ١٩٨٧، محمد القرطبي. الجامع لأحكام القرآن ج/ ٢. تحقيق: د.عبد الله التركي؛ محمد رضوان عرقسوسي. بيروت. دار الرسالة. الطبعة الأولى. ١٤٢٧ – ٢٠٠٦.

٤) الإمام ابن قيم الجوزية. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. ج/ ٢. بيروت. دار المعرفة.

٥) الحافظ ابن كثير. تفسير القرآن العظيم. ج/ ١. تحقيق: عبد العزيز غنيم، محمد عاشور، محمد البنا. القاهرة . دار الشعب

٦) الزمخشري. تفسير الكشاف . ج/ ١

٧) أحمد غراب. رؤية إسلامية للاستشراق. لندن. المنتدى الإسلامي

٨) الإمام ابن جرير الطبري . جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج/ ٢. تحقيق: د.عبدالله التركي. الجيزة. دار هجر. الطبعة الأولى. ١٤٢٢ -٢٠٠١ .

٩) جمال الدين محمد بن منظور . لسان العرب. ج/١ . بيروت. دار صادر .

P-ISSN : 2410-1818
E-ISSN : 2410-521X


١٠) د. جواد علي.المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج/٦ .بيروت. دار العلم للملايين، بغداد . مكتبة النهضة. الطبعة الأولى. ١٩٧٠م .

١١) جيو وايد نغرين. الزندقة. ترجمة: أ.د.سهيل زكار. دمشق. دار التكوين ٢٠٠٥م.

١٢) المستشرقة دراور. أساطير وحكايات شعبية صابئية. ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي مقدمة المترجمين. بغداد

١٣) د. رشدي عليان. الصابئة. حرانيون ومندائيون. وانظر: د.عقيد خالد، د. يحيى أحمد. الصابئة المندائيون وعقائدهم. بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى. ١٤٢٨ -٢٠٠٧

١٤) د.رفيق العجم. الرد على المنطقيين. ج/٢. بيروت. دار المصدر اللبناني. الطبعة الأولى. ١٩٩٣

١٥) سليم برنجي. الصابئة المندائيون دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيون. مقدمة محمد محيط طباطبائي بعنوان نظرة على الكتاب. بيروت. دار الكنوز . الطبعة الأولى . ١٩٩٧

١٦) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج/ ١. جدة. دار الشروق. الطبعة الثامنة. ١٣٩٩ - ١٩٧٩ .

١٧) عباس السكسكي الحنبلي. البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان. تحقيق: د.بسام العموش. الأردن. مكتبة المنار. الطبعة الثانية ١٤١٧ -١٩٩٦ .

١٨) د.عبدالعزيز المرشدي. الصابئون بين الماضي والحاضر. القاهرة . ١٩٩٦

١٩) عزيز سباهي. أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية.٣٢ دمشق. دار المدى. الطبعة الرابعة ٢٠٠٨

٢٠) د.عقيد خالد، د.يحيى أحمد. الصابئة المندائيون وعقائدهم. بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى. ١٤٢٨ -٢٠٠٧

٢١) عقيلة حسين. المرأة المسلمة والاستشراق. دار ابن حزم. الطبعة الأولى. ١٤٢٥ - ٢٠٠٤

٢٢) علي أبو عراق. مقالة: شح عليهم النهر في بلد كله نهر. موقع اتحاد الجمعيات المندائية. وتسميتهم بالمغتسلة ورد أيضا في كتابات المستشرقين مثل: جيو وايد نغرين في كتابه "الزندقة. ماني والمانوية وأطلق عليهم أيضا اسم " المندعية" انظر. ترجمة: أ.د.سهيل زكار. دمشق. دار التكوين. ٢٠٠٥

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

٢٣) علي سيف الدين الآمدي. أبكار الأفكار في أصول الدين. ج/ ١. تحقيق: أحمد المزيدي . بيروت . دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى. ٢٠٠٢ – ١٤٢٤
٢٤) الإمام علي بن محمد الماوردي. تفسير النكت والعيون م/ ١ وتابعه العز بن عبد السلام م/ ١
٢٥) د.علي النملة. ظاهرة الاستشراق مناقشات في المفهوم والإرتباطات. الرياض. مكتبة التوبة. الطبعة الثانية ١٤٢٤ -٢٠٠٣ .
٢٦) غضبان الرومي. مذكرات مندائية. بتصرف قليل. دمشق. دار مدى للثقافة والنشر. الطبعة الأولى.٢٠٠٧
٢٧) فخر الدين الرازي. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ضبط وتعليق: محمد المعتصم بالله البغدادي. بيروت. دار الكتاب العربي. الطبعة الأولى١٤٠٧ -١٩٨٦
٢٨) د.قاسم السامرائي. الاستشراق بين الموضوعية والانفعالية. الرياض. دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع. الطبعة الأولى. عام : ١٤٠٣ -١٩٨٣
٢٩) محمد البشير مغلي. مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب. الرياض. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الطبعة الأولى. ١٤٢٢ -٢٠٠٢
٣٠) محمد الجزائري. المندائيون الصابئة. الأردن. المعهد الملكي للدراسات الدينية
٣١) محمد بن حزم. الفصل في الملل والأهواء والنحل ج/١. تحقيق: د.محمد نصر، عبدالرحمن عميرة. مكتبة عكاظ. الطبعة الأولى. ١٤٠٣ - ١٩٨٢
٣٢) محمد الشوكاني. فتح القدير الجامع بين دفتي الرواية والدراية من علم التفسير. ج/ ١ .علق عليه ووثق نصوصه: سعيد اللحام. مكة. المكتبة التجارية . ١٤١٣ .
٣٣) محمد بن صالح العثيمين. تفسير القرآن العظيم. تفسير الفاتحة وسورة البقرة. م/١. الرياض. دار ابن الجوزي. الطبعة الأولى. ١٤٢٣. وانظر في تفاصيل الاختلاف فيهم. د. رشدي عليان. الصابئون. حرانييون ومندائيون. بغداد .
٣٤) محمد عبدالكريم الشهرستاني. الملل والنحل. ج/ ٢. تحقيق: عبدالأمير المهنا، علي فاعور. بيروت دار المعرفة. الطبعة الأولى. ١٤١٠ -١٩٩٠
٣٥) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. ج٢. الرياض. الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الطبعة الثالثة. ١٤١٨
٣٦) ناجية مراني. مفاهيم صابئية مندائية. بغداد . الطبعة الثانية . ١٩٨١، وانظر: ابن منظور المرجع السابق . ج/ ٦ .

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

٣٧) نادية انجيليسكو. الاستشراق والحوار الحضاري. ٥٥الشارقة. دائرة الثقافة والإعلام. الطبعة الأولى عام : ١٩٩٩

٣٨) نعيم عبد مهلهل. الأهوار من طوفان نوح إلى قهوة المضائف. دمشق. دار نينوى

**الصحف:**

٣٩) صحيفة الشرق الأوسط.

**الدوريات:**

٤٠) مجلة آفاق مندائية.

٤١) مجلة حوليات التراث.

**المواقع:**

٤٢) اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر.

٤٣) الجمعية الخيرية المندائية في الدنمرك.

٤٤) الجمعية الملكية الآسيوية.

٤٥) مؤسسة الحوار المتمدن.

٤٦) مركز المدينة المنورة للدراسات الاستشراقية.

٤٧) الحضارية معهد الأبحاث والتنمية الحضارية (دراسات شرقية غربية).

٤٨) منتدى التوحيد. منتديات الجامع الإسلامية.

٤٩) العراق كلمة.